رواية

راليوم

لما مضى قبل القضا

سلطان النعيمي

مدارك

تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

اليـــــوم

روايــة

د. سلطان النعيمي

(1)

بعد أن تبادلا الضحكات والنشوة من الصفقة المربحة التي جنيا منها الكثير، ينطلق مطرش بسيارته مودعاً صديقه سيف. أمام الفيلا ذات الواجهة الرخامية، يقف سيف ناظراً إلى الواجهة المزينة بأعمدة يونانية وسور يحمل بين جنباته قوارير معلقة تتدلى منها زهور زاهية بألوان مختلفة، بينما تُزين شجر النخيل ممرات الحديقة الأمامية للفيلا. يُسارع الخطى تدفعه في ذلك ضحكات بناته ريم وأمل وفاطمة اللاتي يلهين في الحديقة الداخلية. تقفز فاطمة التي تبلغ من العمر سبع سنوات من أرجوحتها باتجاه والدها فلديها مفاجأتها البريئة:

- هيا يا أبي أسرع أسرع هيا.

ينحني في هرولته ليوحي لفاطمة انصياعه وقوتها في مسك سبابته بيدها، بينما تدفعاه أمل وريم وسط ضحكات الطفولة، تنظر إليه فاطمة ببراءة وتشير بسبابتها اليمنى إلى نخلتها:

- انظر يا أبي لقد كبرت الجوهرة.

في حديقة المنزل التي تتوسطها نافورة جميلة تتدلى من أفواه طيور اللقلق الأربعة مياه تنسكب في حوض يتزين بين فينة وأخرى بألوان جذابة، قام سيف بزرع فسائل نخل بلغن من العمر أربع سنوات. اسم الغالية كان من نصيب فسيلة ريم، بينما اختارت أمل اسم مزينة لفسيلتها، وجاء اسم نونو لفسيلة فاطمة تيمناً باسم عروستها قبل أن يتحول إلى اسم الجوهرة.

تفوح من تلك الحديقة رائحة الياسمين من أشجار الياسمين الهندي التي شكّلت مع الأعمدة الرومانية دائرة كبيرة حول النافورة.

الورود تستقبلك يمنة ويسرة عند باب الفيلا الذي تفتحه زوجته عائشة لتريه طاقم الجلوس الجديد ذا الخشب الذهبي المطرز. ينظر إلى ذلك الطقم مبدياً إعجابه:

- ذوقك جميل يا عائشة مثل جمال وجهك.

تنظر إليه بنظرة واثقة ورغبة في استفزازه:

- وهل من جديد فيما قلته يا أخينا.

يبتسم ماسكاَ بأنف زوجته مداعباَ، فلطالما كان يستلطف مثل هذه المشاكسات

بنظرة إلى الطابق العلوي للغرفة المواجهة للصالة العلوية، يضمّ زوجته إليه:

- متى تنتهي من دراستك يا ناصر وتعود لتضفي على البيت ابتساماً وصفاء.

جميلة تلك الحياة حين تجد نفسك محاطاً بأولئك الذين يضفون عليها رونقاً من السعادة، وضياء من بريق نور منارة الفرح. نعيشُ فيهم، بهم، ولهم.

في كنف هذه الفيلا وحديقتها الغناء وأسرتها السعيدة، التي تنتظر بفارغ الصبر عودة ابنها ناصر الذي يبلغ السادسة عشرة من العمر من أمريكا والمقرر أن يدرس فيها المرحلتين الثانوية والجامعية؛ ليعود محملاً بشهادة التفوق ليضفي مزيداً من السعادة، أحداث متسارعة، ومفاجآت غير متوقعة في طريقها لهذه الأسرة، وبريدٍ الكتروني بعنوان t.b.t@psvi.com يشارف أن يأخذ دوره في حياة سيف ومستجداتها.

(2)

- سيف، سيف

ينادي منصور على شقيقه، الذي ظل متسمراً في مقعد كرسي السيارة مدةً، ينظر إلى موضع قدمه وكأن أسفلها بئراً يكتنفه سواد ظلام الليل، ودامس ليلٍ يدثره.

- هون عليك يا أخي، سأمر عليك غداً الساعة الحادية عشرة صباحاً.

ينطلق منصور بسيارته مهاتفاً زوجته آمنة التي ظلت تحثّه على الدوام للوقوف بجانب أخيه. تغادر السيارة بعيداً، ولازال سيف واقفاً أمام منزله رافعاً رأسه رويداً رويداً. لم تعد تلك القوارير المعلقة تضم سوى خشاش ذلك الزهر، بينما شارف شجر النخيل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. ذهب رونق الأعمدة اليونانية الكبيرة على جنبات بوابة الفيلا بعد أن رسمت الرمال وقطرات المطر خطوطاً متعرجة غير منتظمة وكأنها عروق يد رجل تسعيني.

يتقدم إلى منزله مثقل الخطى يجر قدميه جراً، وكأنها كُبِلت بسلاسل من حديد تجرّ خلفها أثقال المآسي وطعونها. لم تعد رائحة الياسمين تفوح من شجرها. بناته يقفن منحنيات الجذوع ذابلات، إنهن شجرات نخل بناته. جفت عروق طيور اللقلق، وامتلأت النافورة بورق شجر الياسمين الهندي بعد أن فارقن أغصانهن مع عزف لحن الرحيل، تأخذها الرياح إلى مثواها الأخير الذي استقر في ذلك الحوض ليبدل اخضرارها بانكماش وانطوائية.

يمشي باتجاه مدخل بيته، وصوت تكسُرِ الأغصان اليابسة تحت قدميه، يُجسدُ شعوره بتكسر ضلوع صدره من فرط حزنه وكمده. أصوات وضحكات قادمة من داخل الفيلا، يهرول إليها، يقترب فتتعالى الضحكات. ينادي: فاطمة، ريم، أمل. البسمة عادت لسيف والفرحة لا تسعه. يفتح الباب فتمسك اندفاعه يده اليسرى التي وضعها على طرف الباب. ظلمةٌ وعتمةُ مكانٍ، وأصوات لم تعد سوى صدى يتردد في مخيلته. يجثو على ركبتيه ويداه معلقتان على طرفي الباب. بكاء وحرقة.

بعد عودة ناصر لقضاء إجازته الدراسية وعند باب الفيلا، يحرك سيف أنفه يمنة ويسرة ملامساً أنف ابنته فاطمة وهي في سيارة أخيها وبقية الأسرة وسط ضحكات الجميع. يُلوح سيف من سيارته لزوجته وأبنائه منطلقاً الى مكتبه، بينما ناصر وأمه وأخوته متجهون إلى بيت عمهم منصور. عند تقاطع أول إشارة لمنطقة "الورقاء"، تضيء الإشارة الخضراء لناصر ينطلق وهو ينظر الى أمه مبتسماً. تتحول تلك الابتسامة إلى عيون جاحظة، تتغير ملامحه ناظراً الى خارج السيارة من نافذة الكرسي الأمامي الذي كانت تجلس عليه أمه. تراقب

تعابير وجه ابنها الفزع، تنظر الى يمينها، أصوات ضحكات بناتها تنتشر في أرجاء مقصورة السيارة، لحظة هدوء يطبق على المكان وبعدها.. تُقذَفُ السيارة بمن فيها إلى أمتار بعد أن صدمتها شاحنة تجاوزت الإشارة الحمراء لتحمل رائحة الموت إلى كل من في تلك السيارة.

تلك الحديقة الغنّاء، والزوجة المرحبة، والبنات اللاتي يلهين في تلك الحديقة ذات النافورة والأعمدة اليونانية ورائحة الياسمين الذي يعطر تلك الأجواء، ما هي إلا ذكريات بقيت في مخيلته بعد أن فارقته أسرته بأكملها قبل أشهر ثلاث.

"سيف بن ناصر" ذلك الرجل الذي يفتح له عقد الخمسين أبوابه ليلجه خلال سنوات قليلة، كان قد سبقته حالته النفسية بعد وفاة عائلته، فشاخت لتطرق أبواب السبعين من عمرها. هرمت نفسيته، فأصبح البيت وزواياه في مقلة عينه وكأنه شيخ مسن أخذت سنين العمر من تجاعيد وجهه وانحناء ظهره كل مأخذ.

هجر الطابق الأرضي والطابق الأول، وظل الطابق السفلي مكانه الذي يأوي له. لم تكن للمسكنات أن تقدم له نوماً هانئاً. هجر صديقه "مطرش" ولم يعد ذلك الصديق المقرب، بل وحاول أن يمحو أي ذكرى تربطه به. مطرش ذلك الصديق الذي لازمه طوال مراحل حياته وكان أقرب المقربين إليه.

خلال الشهرين الماضيين، أصبح القرآن والدعاء وقيام الليل، رفاق دربه بعد أن استطاع "الدكتور حمدان" طبيب النفس وكثير الاطلاع في العلوم الدينية أن يساعده شيئاً فشيئاً، ونصحه بأن يُفرغ ما في صدره بالكتابة لما لها من أثر في خروجه من حالة الاكتئاب الحادة التي يمرّ بها.

الظلام الدامس يُخيم على البيت نهاراً وليلاً، بصيص الأمل الذي بثّه الدكتور حمدان في نفسه انعكس على مصباح المكتب الصغير للغرفة في الطابق السفلي لمنزله. ظل خلال الأسبوعين الأخيرين عاكفاً على الكتابة، يجمع أوراقه في ملف أزرق. كتابة لعلها تعود به إلى الحياة التي لم يعد لها مذاق سوى مذاق الحرقة والألم.

أسرة رحلت، وكآبة حادة تجرّه إلى حلبة مصارعة، مع الهموم والأحزان. فإما هزيمة أو نصر، وبصيص أمل يعكسه نور مصباح مكتبه، هو ما تبقى من شعلة منارة الحياة. البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com في طريقه ليأخذ دوره في حياة هذا المكلوم، والغوص به إلى مزيد من ظلمات الحزن أو إدراك بصيص أملٍ.

(3)

لون رمادي، ذلك هو اللون الذي تبقى لدى سيف ليرى به الحياة، بعدما طرد عمال الشركة المتعهدة بصيانة حديقة الفيلا، وبات ينهر العامل صفوان إذا قام بتنظيفها. أسدلت ستائر النوافذ فأصبحت العتمة ضيفاً دائماً في تلك الفيلا. لم تعد "شركة المهر" التي أسسها محط اهتمامه، فتولى شقيقه منصور الذي تقاعد مؤخراً إدارة شؤون الشركة، ولكنه لم يكن ذا صلاحية مطلقة بحيث تستغني الشركة تماماً عن سيف، نظراً لارتباط بعض الأعمال بتوقيعه الخاص، وكذلك رسائل بريدية ترد مباشرة إلى عنوان البريد الإلكتروني الشخصي له.

في صباح اليوم التالي، تلقى سيف اتصالاً من مدير مكتبه الأستاذ "مأمون" يخبره بضرورة زيارته للمكتب للتوقيع على بعض الأوراق، والاطلاع على بريده الإلكتروني، حيث هناك العديد من الشركات تنتظر ردّه وموافقته المباشرة للبدء في إنجاز أعمالها أو إتمام الصفقات. سكت سيف لبرهة ثم أجاب:

- حاضر يا مأمون سوف أمرّ على المكتب اليوم بإذن الله.

توجه إلى مكتبه الصغير في الغرفة نفسها. وضع ملفه الأزرق على الطرف الأيمن من السرير بالقرب من ساعةِ يدٍ رقميةٍ. يغادر الغرفة دامسة الظلمة إلا من نور يجاهد ليمرّ بين ما تبقى من فتحة الباب ليلامس ذلك الملف.

وقف سيف خارج باب الفيلا ينظر إلى تلك الحديقة المتهالكة وجذوع نخل بناته المنحنيات. ينهر صفوان الذي كان يحاول تنظيف الحديقة من الأغصان والأوراق المتساقط. انصرف صفوان مطأطئاً رأسه حزيناً على ما آلت إليه حالة رب عمله.

من منطقة "ند الحمر" في دبي انطلق سيف إلى مكتب شركته الذي يقع بالقرب من المدينة الطبية في دبي. كانت تلك الزيارة الأولى له بعد الحادث. الدكتور حمدان كان قد أوصى "مأمون" مدير مكتب سيف بأن يبلغ الموظفين التصرف بشكل طبيعي عند رؤية سيف.

تسير الأمور على طبيعتها حيث القهوة العربية والتمر أمام مكتب سيف، حركة دؤوبة من الموظفين، مندوب شركة بريد الإمارات وصل للتو ليسلم موظف الاستقبال عدداً من الطرود. يقف موظف الاستقبال مسلّماً على سيف مع دخوله الشركة. بعد حديث مقتضب مع مأمون، الذي أشار له أن شُحنة اللوز المستوردة من شركة F2JS" " الصربية قد وصلت منذ يومين، وجاء الأستاذ "جمال المرزوقي" وشريكه "فلاديمير" لاستلام المبلغ المتبقي من هذه الصفقة.

ينصرف مأمون تاركاً سيفاً على انفراد. مع صوت انغلاق باب المكتب، كان سيف قد أنهى الرشفة الأخيرة من فنجان قهوته. عاد بظهره إلى الأريكة باسطاً ذراعيه عليها، ينظر إلى سقف مكتبه الذي زخرف بالجص المغربي الممزوج بألوان زاهية. ما كان لتلك الألوان أن تمنحه رونقاً وراحةً لنفسيته التي لازالت في حلبة الصراع مع الاكتئاب، واللون الرمادي يطغى على بقية الألوان، تستمر عيناه ناظرة إلى ذلك السقف مردداً بيت الشعر التالي:

- يا كوني الوسيع و يا عمري الباقي...وش بقى بعد فرقا الحبايب

بعد نفس عميق ينهض إلى كرسي مكتبه لتبدأ رحلته مع البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com.عدد محدود من الرسائل البريدية تردّ إلى البريد الخاص به، حيث حرص على عدم إعطاء بطاقة العمل الخاصة به "البزنس كارت" الذي دوّن فيه بريده الخاص إلا لقلة قليلة من الشخصيات أهمها مدراء الشركات، أما البقية، فكان دائماً ما يتبادل معهم بطاقة العمل المدوّن عليه بريد شركته.

سبع رسائل بريدية كانت من مدراء ثلاث شركات تنتظر موافقته للبدء بالمشاريع، والمبادلات التجارية. نهجٌ اتخذه بعد أن تعرض لمحاولة خداع من قبل محاسب الشركة السابق.

يقطب سيف حواجبه مقترباً من شاشة كمبيوتره. فبينما كان يهم بالخروج من حسابه البريدي، إذا برسالة بريدية تصله من البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com ينظر إلى عنوان البريد:

- غريب، بريد من هذا؟

ما إن اقترب أكثر من شاشة الكمبيوتر ليقرأ عنوان الرسالة، حتى عاد بكرسيه المتحرك بقوة ليفصل التيار الكهربائي عن كمبيوتره. ينهض ليبعثر ما في مكتبه باحثاً عن مفاتيح سيارته، ثم يخرج مسرعاً من المكتب، يحاول مأمون اللحاق به لكنه انطلق مهرولاً مغادراً. في طريق العودة، توقف أمام عيادة الدكتور حمدان غارقاً في فكره ورأسه على مقود السيارة.

رسالة بريدية تهيج مشاعر الخوف، وتستدعي ما في أغوار النفس من حزن لمن فارق الحياة.

"رسائل تأتينا من العدم، لمن بقى من عمره نبض حياةٍ قبل العدم، جاءت من العدم لتُحيي النفس التي باتت من الحزن عدم"

(4)

من نافذة عيادته في مجمع العيادات، لمِحَ الدكتور حمدان سيارة سيف واقفةً أمام ذلك المجمع. انتظر نزوله منها ولكنه لازال على وضعيته، اليدان والرأس على المقود. يخرج الدكتور حمدان مسرعاً إلى الخارج وما زال سيف على وضعه كما هو. اقترب من نافذة السيارة طارقاً على النافذة:

- صباح الخير

ما إن رفع وجهه الشاحب حتى أدرك الدكتور حمدان أن في الأمر شيئاً ما، نزل من سيارته ليسلم عليه:

- مرحباً دكتور حمدان

- أراك في الجوار، يبدو أنك افتقدتني، هيا تفضل

- لا لا يا دكتور، لا أريد أن آخذ من وقتك فلديك مراجعوك.

- بل لدي من الوقت الكثير، اثنان من المراجعين ألغيا موعديهما. أنا محظوظ اليوم هيا تعال فالكابتشينو المفضلة لك تناديك من "ستاربكس"

على طاولة بالقرب من الشباك المطل على حديقة تتوسط مجمع العيادات، أخذ الدكتور حمدان صديقه سيف إلى مواضيع عامة لكي يُخرجه مما جعله شاحب الوجه. حيث تحدث معه عن فوز النادي الأهلي ببطولة دوري الخليج العربي للمرة السابعة، وفوز مروان بن غليطة برئاسة اتحاد الكرة الإماراتي، وكذلك النشاط الذي تبديه معالي الوزيرة شما المزروعي وزيرة الشباب من جهد وأفكار، وكيف يمكن لوزارة السعادة برئاسة عهود الرومي أن يكون لها دور في مجتمع دولة الإمارات.

يرفع الدكتور حمدان هاتفه مشغلاً الكاميرا الأمامية لهاتفه "الآي فون IPhone 6 plus" قائلاً:

- الشجاعة بمفهومها البسيط لا تعني عدم الخوف، وإنما السيطرة عليه. فإذا لم تشعر بالخوف، فيعني ذلك أنك تفتقد إحدى مشاعر الإنسانية. سيطر على خوفك، وانطلق.

تعمد الدكتور حمدان إبراز هذه العبارة وتصويرها في حسابه في "السناب شات Snapchat". حيث كانت رسالته بالدرجة الأولى لسيف قبل متابعيه:

- آترى يا سيف كيف سهلت وسائل التواصل الاجتماعي علينا الكثير. نصائح أرسلها عبر هذه الوسائل، وتصل إلى الكثير من المتابعين الذين يحتاجون لجرعات بسيطة لكي يتخلصوا من شوائب تعكر مزاجهم.

قاطع سيف الدكتور حمدان، وبصوت طرقت على أوتاره أحاسيس الخوف والاندهاش:

- "هذه الرسالة من شخص فارق الحياة منذ ثلاثة أشهر".

قال هذه الجملة وهو لا يزال ناظراً إلى الحديقة. عاد بجسمه إلى ظهر الكرسي ساحباً ذراعيه عن الطاولة ليضعهما في حجره قائلاً:

- دكتور كلما أصارع آلامي للخروج من هذه الحالة التي تنغّص حياتي، إذا بمستجدات تطرأ، تجرّني جراً إلى أحاسيس حزن غارقةً في أعماقي. ما قلته لك هو عنوان رسالة الكترونية لم أجرؤ بعد على قراءتها. رسالة قادمة من بريد الكتروني لم أره من قبل.

يميل الدكتور حمدان باتجاه الطاولة ليقترب منه:

- سيف قد قلت بنفسك للتو إنه بريد غريب، ولم تره من قبل. ركز على هذه الفكرة، ولا تعطِ الأمر أكثر من حجمه. لديك من الشجاعة التي تتيح لك السيطرة على مشاعرِ قلقٍ لم تصل بعد إلى مرحلة الخوف. أخبرني كيف هي الكتابة معك؟.

- لا أخفيك سراً دكتور إنها تساعدني كثيراً في تخفيف ما يعتمل في صدري من ضيق. لعلي أعود اليوم للكتابة كي أبعد عني التفكير بهذه الرسالة الغريبة.

- حسناً تفعل، وستجد بعد الانتهاء من كتابتك، كيف أنها بالفعل لها تأثير إيجابي عليك. المهم لا تعطِ لتلك الرسالة البريدية التي قرأتها اهتماماً.

استأذن سيف منطلقاً بسيارته تجاه منزله. مرت ستة أيام على الرسالة الالكترونية من البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com وعنوانها الغريب الذي حاول تجاهله ولكنه أبى إلا أن يزاحم فكره.

في ذلك اليوم وفي ظل تلك الأفكار وتزاحم الأسئلة التي لا تتوقف، قرر أن يتوجه إلى مكتبه. لا يدري هل هو ذاهب ليصرف تلك الأفكار عنه، أم أن الفضول هو الذي يدفعه لمكتبه وبريده الخاص.

أسئلة تتزاحم، وفضول يطبق على يديه يجرّها إلى لوحة المفاتيح ليدخل رقمه السري، ويفتح بريده الإلكتروني. بين دفاع التردد، وهجوم الفضول، تتحرك أنامله على لوحة

المفاتيح وإذا بالبريد الالكتروني t.b.t@psvi.com قد بعث للتو بالرسالة السابعة بعنوان:

"هذه الرسالة من شخص فارق الحياة منذ ثلاثة أشهر"

يحيط سيف جبهته بيديه ناظراً إلى مكتبه وهو يناجي نفسه:

- على مدار سبعة أيام تصلني الرسالة ذاتها من البريد الالكتروني ذاته. شخص مات منذ ثلاثة أشهر كيف له أن يرسل رسالة بريدية، ما هذا اللغز؟، وماذا يريد مني؟!.

تستمر التساؤلات، ويطبق الفضول بذراعيه على رقبة سيف. لم يتبق له وسط كل ذلك إلا الضغط على تلك الرسالة البريدية ليجدها على النحو التالي:

- "السلام عليكم ورحمة الله يا أخ سيف، لعل أول ما يتبادر لذهنك، كيف تصلك رسائل بريدية من شخص ميت؟. ولماذا اختار بريدك الالكتروني دون غيره؟ ماذا يريد شخص ميت منك؟ أدرك تماماً أن هذه الأسئلة وغيرها تتدفق إليك. وكي لا أزاحمك بغيرها من الأسئلة، فقد تبقت مدة ثلاثة أيام فقط، عندها لن تصلك رسالة من هذا البريد، وستنتقل إلى غيرك. إذا أردت مساعدتي فإن الأمر متروك لك بالضغط على أحد المربعين أسفل الرسالة. فإما "لا"، وعندها يتوقف البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com عن إرسال رسائل بريدية لك نهائياً، وإما "نعم"، وعندها تصلك رسائل تباعاً لتوضح لك ما هو غامض وكيف السبيل لمساعدتي، وإما أن تترك لنفسك حرية التفكير خلال الأيام المتبقة لحين الوصول إلى اليوم العاشر، الذي لا بد أن تتخذ قرارك فيه، وإلا ينتقل الأمر إلى بريد إلكتروني آخر.

الرسالة ذاتها تكررت بمضمونها نفسه خلال الأيام السابقة، ولم يختلف فيها شيء سوى العد التنازلي للأيام. عاد بكرسيه إلى الوراء واضعاً يديه خلف رأسه، مغمضاً عينيه تارة، وتارة مطلقاً عنان بصره ناظراً إلى سقف مكتبه الذي تعلوه قبة زجاجية تلاشت عنه في زيارته الأولى لمكتبه بعد حادث وفاة عائلته.

"صدفة يكتنفها الغموض ومفاجأة تجتاحها الأسرار. هي الحياة هكذا، تمضي بنا لنكتشف خبايا المجهول، ندرك بعضه، ونتجاهل ربما أهمه، علّ غداً ينعم علينا بإدراكه"

(5)

انخرط سيف بخياله وفكره في طريقه إلى عيادة الدكتور حمدان. عند المصاعد الكهربائية يبحث عن لوحة عيادة صديقه. يجدها وقد كُتب عليها "عيادة الدكتور حمدان م. ذ" الطابق الثاني عيادة رقم 0 20-2-2، عند دخوله العيادة، كان الدكتور حمدان قد خرج للتو من غرفته وفي يده ملف سلمه للممرضة.

- أهلاً بصديقي. ما هذه المفاجئة، شكراً أنك وفرَّت علي النزول وطرقِ نافذة باب سيارتك.

- لا لا هذه المرة أنا من جاء إليك. إذا كان لديك وقت فإنني أطمع في "سبع دقائق على انفراد".

- ليست خمس دقائق لأنها سريعة المرور، وليست عشر دقائق لأنها كثيرة. مُدد وأرقام تشرّبها عقلنا الباطن ليوحي لنا ما نستشعر به مجرد أن نسمع رقم 5 أو 10. سبع دقائق على انفراد لك يا صديقي، ولكن قبلها أريد منك أن تمهلني سبع دقائق مضروبة في أربع لرؤية أحد المراجعين.

- شكراً دكتور. سأكون بانتظارك في ستاربكس.

اختار سيف الطاولة ذاتها المطلة على الحديقة، مطلقاً عنان تفكيره الذي بدأ يعيد الأسئلة ذاتها التي توقعها صاحب البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com مرت نصف ساعة وإذا بالدكتور حمدان يسحب الكرسي المقابل لسيف قائلاً له:

- المعذرة منك تأخرت عليك.

- إطلاقاً يا دكتور بل أرجوك اعذرني على الحضور من دون سابق موعد.

- وهل أنت أحد مراجعي عيادتي لتأخذ موعداً؟!. انت أخ وصديق ويصادف في كل مرة تحضر فيها عيادتي يكون هناك مراجعون يلغون مواعيدهم. هل هو حظ أم فال نحس؟!.

وضع سيف يده في جيبه ضاحكاً يريد أن يدفع للدكتور حمدان تعويضاً لأن قدومه يتزامن معه اعتذار مراجعيه. ذهب الدكتور حمدان وهو يضحك إلى كاونتر "counter" ستاربكس ليطلب قهوته المفضلة. ثم عاد ومعه كعكة اليقطين Pumpkin" " التي يفضلها صديقه:

- تفضل الكعكة المفضلة. لا أدري إن كان غيرك يسميها بـ"خبيصة ستاربكس". ولكن بالفعل هي قريبة من طعم الخبيص الإماراتي، ولكن بشرط أن تدعكها بيديك كي تستشعر

بالخبيصة الإماراتية. انظر كيف أنني طيب معك بالرغم من أنك تلغي مواعيد مراجعين بحضورك، فهيا لندعكَ "الخبيصة الاستاربكسية".

في حالة من الضحك، يضع الدكتور حمدان يده على يد سيف الذي يحاول مرة أخرى وهو يضحك إخراج محفظته من جيبه. مع تناول القهوة يوجه الدكتور حمدان سؤاله:

- ها، قل لي يا سيف ما الجديد اختفيت فترة. لا بدّ أن الكتابة أخذتك منا. لعلك تكتب رواية وستفاجئنا بها.

- دكتور تذكر الرسالة التي وصلتني من البريد الالكتروني....

يقاطعه الدكتور حمدان مكملاً:

- والذي قلت عنه إنه غريب. لا تقل لي إنه هو من أسرك طوال تلك الفترة؟!.

- لا ليس كذلك. ولكن لا أنكر أنه أخذ حيزاً من تفكيري، دفعني إلى أن أتوجه إلى المكتب اليوم وإذا به قد أرسل الرسالة ذاتها المرة تلو الأخرى خلال الأيام الماضية.

بدأ سيف بسرد تفاصيل ما جاء في تلك الرسالة، وتعابير الاستغراب مرسومة على وجه الدكتور حمدان:

- محيّر بالفعل هذا الأمر. ولكنه في الوقت ذاته مثيراً للتساؤل. حسناً فيم تفكر الآن؟.

- لا أخفيك سراً دكتور، الفضول كان اللاعب الرئيس في البداية، ولكن دائماً ما تراودني رغبة عارمة في معرفة تفاصيل الأمر، ومدى ما يمكن أن أقدمه لهذا الشخص. ما رأيك؟

انتهز الدكتور حمدان هذا الشعور الإيجابي، وهو ما كان يتطلع له منذ فترة لكي يُخرِج سيف، ويعود به إلى حياته الطبيعية.

- لا يمكن نكران دور الفضول وما يلعبه في حثنا على اكتشاف ما هو غامض، وخاصة في حالة كهذه. دعنا نُسلم بهذه الحقيقة، وننظر إلى جانبها الإيجابي ليصل الأمر في نهاية المطاف إلى مقدرتك على مساعدة هذا الشخص، ويكون أجر ما تقوم به في ميزان حسنات عائلتك ووالديك. سيكون لا شك أمراً جميلاً وسينعكس على نفسيتك شخصياً.

يعود سيف من جديد للنظر إلى تلك الحديقة التي يلهو بألعابها عددٌ من الأطفال متذكراً بناته فاطمة، ريم وأمل. عاد لينظر إلى الدكتور حمدان محركاً رأسه بإيماءة بأنها فكرة جيدة.

عاد الدكتور حمدان الى عيادته، بينما انطلق سيف بسيارته قاصداً "الفيستيفال ستي"، وتحديداً "البادية" التي تحتوي على ملعب للغولف ضم مجموعة من المطاعم يطل بعضها على شلالات صناعية، يزين جمالها ألوان براقة اصطفت لتأخذ كل واحدة منها دورها. قاربت الشمس على الغروب، وكلما حلّ الظلام، زاد بريق الشلالات بالألوان الزاهية التي تنعكس عليه. ينظر سيف إليها ويقول في نفسه:

- لم يتبق سوى ثلاثة أيام، وها هو التفكير يقتلني منذ اليوم الأول. هل أحتاج إلى التفكير؟ لماذا لا يكون صاحب البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com بالفعل بحاجة إلى المساعدة؟ لماذا لا أكون أنا دون غيري من يفوز بمساعدة من لا حيلة له ولا قوة ؟ماذا لو لم أستطع مساعدته؟ أليس من الممكن أن تكون مساعدته مستحيلة؟ ولماذا لم يساعد نفسه بنفسه؟ ولماذا انتظر حتى وفاته؟ اااااه قد غرزت أيها التفكير في الصدر رماحاً.

"في وحلِ التردُدِ لازِلنا، وفرص الحياة تباعاً تفارقُنا. تشيخ وتذبل سنونها، ونحن من قبلها، قد ذبلنا والسنون من بعدها تودعنا"

(6)

في صباح اليوم التالي، وبعد ليلة من التفكير العميق خرج سيف من غرفته ليجلس على الطاولة التي وضعت على الطرف الأيسر من باب الفيلا. نادى على صفوان الذي جمع بين مهنة الطبخ ومسؤوليات أخرى ليحضُر له القهوة.

وضع صفوان القهوة على الطاولة، وبينما كان يهم بالانصراف أمسك سيف يده طالباً منه الجلوس. بعد فنجان من القهوة توجه سيف بالسؤال:

- كيف حالك يا صفوان؟ سامحني لقد كنت كثير الصراخ عليك. قل لي كيف هي صحة والدك سليم؟.

- الحمد لله بخير، يقول إنه يريد أن يتزوج ثانية، ولكن أمي توعدت بخنقه وهو نائم إذا فعلها.

يرجع سيف برأسه ضارباً كفاً بكف بعد أن وضع الفنجان على الطاولة من فرط الضحك.

- الآن سليم يخاف من زوجته!!. ليتك تعلم ما كان يصنع بنا أنا ومنصور. لعل أمك تنتقم لنا منه. بالرغم من أنه كان يضربنا، إلا أنه كان بالفعل حنوناً ويشتري لنا حلويات من البقالة. إنه كان بمنزلة الأب لنا.

صفوان، كان قد انضم للعمل مع أبيه في هذا البيت بعد سنوات قضاها مع جد سيف. لم يسلم سيف من سليم والد صفوان، فكانت الضربات بالعصا أو باليد من سليم تلاحقه بين فترة وأخرى.

بعد ذلك الحديث واستعادة الذكريات، انطلق بسيارته والهدف مرسوم أمامه ويردده:

- لن انتظر الأفكار تأخذني يمنة ويسرة.

نصف ساعة أو أقل هي المدة الفاصلة ليكتشف أسرار البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com. عند الوصول الى المكتب، كان مأمون باجتماع مع عدد من مندوبي شركات في غرفة الاجتماعات الزجاجية القريبة من مكتب سيف. يشير سيف إلى مأمون بالاستمرار في ذلك الاجتماع حين كان يهمّ بالتوجه نحوه.

إنها الساعة التاسعة والنصف، فتح بريده الشخصي، وها قد وصلت الرسالة الثامنة في يومها الثامن. بلمحة بسيطة أدرك أنها بالمحتوى والنص ذاته، ولا يتغير منها سوى المدة

المتبقية.

رجع بكرسيه إلى الوراء بعد أن ضغط على الزر "نعم"، إيذاناً بالمضي في أغوار البريد الالكتروني وصاحبه. أصابع يده اليسرى تلامس بالتناوب ذقنه. قام من كرسيه متجهاً إلى دلة القهوة يمسك فنجانه يحركه بأصابع يده يمنة ويسرة، بعد الرشفة الثانية من القهوة، صوت رسالة بريدية تصل إلى مسامعه. عاد إلى كرسيه، وإذا برسالة بريدية من t.b.t@psvi.com عنوان الرسالة:

"شكراً على قبولك مساعدة من لا حيلة له"

- السلام عليك أخ سيف، شكراً لك بداية على تقبلك مساعدتي، ولا تنس أنه باستطاعتك أن تنسحب في أي وقت. ففي كل رسالة ستصلك، سيكون هناك خياران، إما المتابعة بمساعدتي، أو الانسحاب.

رفع سيف كفيه موجهاً أصابع يده إلى الكمبيوتر قائلاً:

- دعني أولاً أعرف من أنت؟ وما هي المساعدة التي تريدها مني لكي أقرر إن كنت سأمضي أو أنسحب؟.

- بداية اسمي "حمدان بن مجرن بن ذيبان"، لا تقلب فكرك كثيراً لتتذكرني، فلم ألتق بك سوى مرة واحدة قبل قرابة خمس سنوات، ولا أعلم شيئاً عنك سوى أنك صاحب شركة "المُهر" للاستيراد والتصدير. التقينا في إحدى المناسبات التي نظمتها غرفة التجارة والصناعة في العاصمة أبوظبي. قدمت لك بطاعة العمل الخاصة بي. قَلَبتَ في محفظتك فلم تجد بطاقة العمل الخاصة بك، فاضطررت أن تعطيني بطاقة العمل الشخصية خاصتك، حيث دونت عليه بريد الشركة مشيراً إلى أن البريد الآخر هو بريد شخصي لك.

يُدير كرسيه لينظر إلى نافذته، وينطلق بفكره محاولاً استذكار ذلك الموقف. لا مجال لذلك فالمناسبات كثيرة ومن يصادفهم في تلك المناسبات أُناس كثر. نفسٌ عميقٌ يتبعه زفير وتساؤل:

- لا يعرفني ولم يلتق بي سوى مرة واحدة، ويريد بعد كل هذا أن أساعده. أين أقرب المقربين منه لكي يساعدوه عوضَ أن يساعده من هو غريب عنه؟.

يعود من جديد إلى رسالة حمدان الذي يبدو أنه استعد لمثل تلك التساؤلات التي ستدور في فكر من ستصله هذه الرسائل:

- لا يعرفني والتقى بي مرة واحدة ويريدني أن أساعده. لعل هذه الجملة التي تراود فكرك الآن. في الحقيقة إنك والبقية هم كذلك لا يعرفونني والتقوني ربما مرة واحدة فقط. وبالتالي ما الذي يدفعهم ويدفعك لمساعدتي؟ وهل من الأساس كنت أتوقع أن يساعدني أحد منكم؟

الحقيقة لا علم لي بذلك. ولو كنت أرغب في أن يساعدني شخص على معرفة بي؛ لما ذهبت بعيداً عن أخوتي وأقاربي. عمل الخير، مساعدة المحتاجين، حالتي الخاصة، وقلة حيلتي لعلها أسباب يمكن أن تعطي دافعاً لك لمساعدتي، وإذا لم أجد ذلك فلعل غيرك يفعل إذا وصلت له رسائلي.

لا أدري إن كنت لازلت مهتماً بمساعدتي أم لا. هل قمت بالضغط على زر "لا" لتتوقف عن مساعدتي؟. فإن لم تكن فعلت؛ فيتوجب علي أن أشرح لك أمراً لا شك أنه كان سيراود فكرك عاجلاً أم آجلاً. نعم كنت أتمنى لو قمت بنفسي بما أريدك أن تساعدني به، وهذا ما كنت عاقد العزم عليه.

هل لازلت راغباً في مساعدتي؟

"انتهت الرسالة"

لا يزال سيف في حيرة من أمره. يقف أمام مكتبته التي رُصت فيها ملفات لعقود واتفاقيات مع شركات محلية وأجنبية، واضعاً ذراعيه خلفه سارحاً بفكره مردداً:

- إذا كان هذا الشخص الذي يُدعى حمدان بن مجرن بن ذيبان قد توفاه الله فكيف للبريد t.b.t@psvi.com أن يبعث بهذه الرسائل؟ هل يدفعني الفضول إلى معرفة المزيد أم إنني بالفعل أريد مساعدته؟. لعل الأمرين كليهما.

(7)

ينتهي اشتباك أيدي سيف بعد أن قرر المضي في رحلته مع حمدان بن مجرن، وتقديم يد العون والمساعدة بالحد الأقصى وعلى قدر الاستطاعة. يعود الى كمبيوتره قائلاً:

- ها أنا يا حمدان أضغط على زر "نعم" للاستمرار معك. أتمنى أن يكون في رسالتك التالية ما يجيب على تساؤلي. كيف تصل رسائلك، وتتجاوب معي في قبولي أو رفضي وأنت قد أصبحت تحت الثرى؟!.

دقيقة ونغمة وصول رسالة بريدية تنطلق من الكمبيوتر لتطبق عليها أذنه وكأنها فريسة ينتظرها صيادها.

- لن أدعي يا سيف أنني كنت شخصاً مثالياً، فلكل أخطاؤه. لقد قررت مؤخراً أن أُكِفَر عن أخطاء ارتكبتها. ألسنا بشراً، ألا نخطئ، ألا نرتكب فظائع في حياتنا. أرجوك لا تجزع حين أقول لك إن نفسي كانت تقول لي **"لا فائدة من تكفير خطاياك، فهي من الفظاعة ما لا يمكنك أن تعوض من أجرمت في حقهم"**. نعم ها أنا ذا حمدان بن مجرن، ارتكب أخطاء في حياته، ووافته المنية قبل أن يُكَفِرَ عنها، ويتمنى أن يكون الله قد سخرك لمساعدته، وتكون لك أسبابك التي تدفعك للمضي في رحلتي حتى النهاية. هل لازلت معي أم ترددت الآن؟. على أية حال لا أريد أن أكرر لك ما يتوجب عليك فعله في حال رغبتك بعدم الاستمرار.

مع انتهائه من قراءة هذه الجملة، طرق منصور باب المكتب:

- صباح الخير يا نشيط، ما شاء الله عليك، خلاص أعتقد أن الشركة لم تعد بحاجتي.

قام سيف من مكانه، آخذاً بيد منصور ليخرجه من المكتب:

- لا لا يا أبا محمد، أنت الآن جزء أصيل في الشركة. أنا حالياً مشغول بأمر ما، أسأل الله أن يجعله في ميزان حسنات عائلتي. لا تحدثني عن أي شيء، وأنا موافق على أي أمر تقوم به. المهم أن تنسق مع مأمون، واعتبروني خارج نطاق الخدمة. هيا هيا اخرج الآن أرجوك.

يضحك منصور من موقف شقيقه ورغبته بخروجه بسرعة. يمازحه قليلاً فيجلس فجأة على المنضدة، يقوم سيف بسحبه من يده، ودفعه قليلاً من ظهره ومنصور في حالة ضحك.

يعود ليناجي نفسه من جديد: لا يهمني ما الذي ارتكبته يا حمدان، فلكل أخطاؤه ورحمة ربنا واسعة. ألم يغفر لمن قتل مئة نفس؟. يعود للرسالة:

- أعود إلى ما أتوقع أنه سيشغل بالك يا سيف. كيف تصلك رسائل من بريدي الالكتروني t.b.t@psvi.com وأنا ميت؟. لعلك تعلم بقصة الرجل الذي قتل مئة نفس ونصحه شيخ بترك البلد الذي يقطن فيه إلى بلدة أخرى، ولكن توفاه الله وهو في الطريق، فاختلفت ملائكة الرحمة والعذاب كيف سيغدو مصيره. ولكن رحمة الله قد لطفت به. هذا ما ظل يراودني وخفت الموت أن يسبقني قبل أن أكفر عن أخطائي. ولذا قمت بالتعاقد مع مبرمج حاسوب ليجعل من بريدي الإلكتروني وسيلة ليساعدني أحد بعد الله، في جعل مسافتي لبلدة الرحمة، أقرب منها لبلدة العذاب، وأن لا تخطفني ملائكة العذاب.

لقد طلبت من المبرمج أن يصمم برنامجاً يتنبأ بأنه في حال عدم فتح بريدي الالكتروني لمدة ثلاثة أشهر، فهذا يعني أنني فارقت الحياة. وعندها، يقوم بإرسال الرسائل التي ستأتيك أو لعلها تذهب لغيرك، وذلك لإكمال مسيرة التكفير عن أخطائي.

بعد أن انتهى المبرمج من عمله، قمت بنفسي بتغذية البرنامج بالرسائل التي لا بدّ أن تُرسل بالترتيب. ثم بعدها قمت بوضع العناوين البريدية، وكان بريدك على رأس القائمة. لم يأت بريدك على رأس القائمة نتيجة تسلسل الحروف الأبجدية، وإنما صادف أن تكون بطاقة عملك الشخصية أول البطاقات التي وصلت إليها يدي.

يبدأ البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com بإرسال الرسائل تباعاً لك، فإذا تجاوبت معي إلى النهاية يبدأ وينتهي المطاف بك. وفي حال عدم رغبتك بمساعدتي، فسوف ينتقل البرنامج إلى عنوان بريدي آخر.

لقد وضعت يا سيف بالحسبان، إمكانية أن يتحمس شخص لمساعدتي في البداية، ولكن وتحت أي ظرف ربما لا يستطيع أن يكمل المشوار. عندها يعود البرنامج ليكمل ما تبقى من خطاياي مع عناوين بريدية لأشخاص آخرين. المدد الزمنية المحددة لكل رسالة للتجاوب معها، تعطي مؤشر للبرنامج على مدى تجاوب من يريد مساعدتي أم لا، مضاف إليه زر "لا" الذي يجعل البرنامج ينتقل مباشرة إلى البريد الالكتروني التالي دون اعتبار للمدة المتبقية لكل رسالة بريدية. لاحظ معي يا سيف عبارة **"إكمال مسيرة التكفير عن أخطائي"** هذا يعني أنني باشرت ببعضها وبالتالي قمت بمسح الرسائل التي توضّح الخطيئة التي ارتكبتها مباشرة بعد قيامي بمعالجتها، وما سيصلك منها هي تلك التي سبقها الموت ليطالني قبل أن أطالها.

يضع سيف يديه على طرف الكرسي ناظراً الى الأعلى وعلامات الاستغراب باديةً عليه متسائلاً:

- كيف تنتقل هذه الرسائل من شخص إلى آخر، واسمي يتردد بين ثناياها؟

يعود إلى الرسالة البريدية...

- لقد فكرت بجميع الاحتمالات والتساؤلات التي ربما تتبادر إلى ذهن من يتلقى رسائلي يا سيف، ولذا حاولت أن أجيب عليها من خلال هذه الرسائل. مناجاتي لك تأتي من معرفتي باسمك، ولكن لا يعني هذا أنه في حال انتقالها لغيرك سيكون اسمك مرافقاً لها. ستبقى الرسائل كما هي، وما إن تنتقل من بريد إلى آخر، حتى يقوم البرنامج فقط باستبدال الأسماء مكان الأسماء. فالرسائل التي ستصلك هي ذاتها التي ربما ستصل إلى غيرك.

لماذا لم أوكل المهمة إلى أحد أقاربي أو عائلتي؟. هل يعود هذا السؤال ليطل عليك بين الفينة والأخرى يا سيف؟ لعل ما ارتكبته يجعلني أخجل وأحرص على أن لا يعلمه أحد من أقاربي.

هل لا زلت معي؟ هل أنت راغب بمساعدتي؟ أم أثبطتك عبارة **"لا فائدة من تكفير خطاياك، فهي من الفظاعة ما لا يمكنك أن تعوّض من أجرمت بحقهم"**.

إجابتك ستأتي من خلال اختيارك. للتذكير في حال عدم اختيار "نعم" أم "لا" لأية رسالة بعد فتحك لأولها، ينتظر البرنامج مدة أربع وعشرين ساعة لتتجاوب معه، وإلا ينتقل إلى غيرك. فكر في الأمر فما سيأتيك لاحقاً يحتاج بعدها إلى عمل أتمنى أن تساعدني به.

"انتهت الرسالة"

صوت باب انغلاق المكتب، سبقه إطفاء لأنواره، تتحول شاشة ذلك الكمبيوتر إلى (safe mode) لترتسم عليها صورة لسهول وسماء صافية تبعث على فسحة التفكير. ذلك ما حدث، غادر سيف مكتبه دون أن تكون لديه إجابة على رسالة حمدان بن مجرن. أخذ معه كمبيوتره الخاص، فلعل الفضول والتفكير يباغته ليرسل إجابته إلى البريد الإلكتروني t.b.t@psvi.com

انطلق بسيارته متجهاً إلى "مقبرة القوز" الواقعة في بر دبي. عند قبور خمسة صفت بقرب بعضها البعض، رفع يده للدعاء لأسرته ودموعه تتساقط على قبورهم. انتقل بعدها إلى موقع آخر حيث قبر والديه، يرفع يده بالدعاء لهما قاطعاً الوعد بأنه لن يتوقف عن زيارتهما والدعاء لهما. عاد من جديد إلى قبور أسرته متحسراً على أيام قد مضت هباءً منثوراً بعيداً عن الاستمتاع بأوقات ثمينة معهم.

بعد صلاة الظهر وصلاة ركعتي السُّنّة. قام سيف بصلاة ركعتين، قرأ في الركعة الأولى سورة "الكافرون"، بينما قرأ سورة "الإخلاص" في الركعة الثانية. بعد التسليم أخرج هاتفه ليبحث عن برنامج الأدعية، وتحديداً دعاء الاستخارة.

عند حلول المغرب، كان سيف قد سبق الدكتور حمدان إلى مكانه المفضل في "الفيستيفال ستي" والجلوس في شرفة أحد المطاعم في الغولف، حيث الشلالات وانعكاس الألوان عليها.

سيف وحمدان يتوسطهما حمدان.

مع وصول الدكتور حمدان انطلق سيف في شرح ما قرأه من رسائل بريدية للدكتور حمدان، والذي كان يطرح الأسئلة ذاتها التي كانت تدور في فكر سيف، لتجيب عليها رسائل البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com يدنو الدكتور حمدان منه:

- اسمعني يا صديقي، أعتقد أن حماسك واضح وعندك رغبة بمساعدة حمدان رحمة الله عليه. الجميل في الموضوع أنه ترك لك حرية التراجع في أي وقت. ابدأ وتوكل على الله، ولعل ذلك من مبشرات استخارتك.

لملم سيف حاجياته مودعاً الدكتور حمدان وقد حسم أمره واتخذ قراره، يُشجعه في ذلك الدكتور حمدان لمساعدة حمدان. مع صباح الغد يبدأ المشوار لكشف أسرار حمدان ومعرفة ما الذي اقترفه من خطايا. لم يكن ذلك ما يشغله، فلم يعد الفضول هو المهم، بل كيف يساعده، وهل سيستطيع الاستمرار إلى نهاية المطاف؟.

"تتوق النفس لفعل الخيرات، بينما يصارعها قرين السوء، ويثبط همتها. فإما استسلام له، أو إرادة تكسر قيوده"

(8)

في صباح اليوم التالي، توجه سيف إلى عزبة شقيقه منصور في منطقة الهير في مدينة العين. عند مدخل بوابة العزبة، كان "مراد" بانتظاره. هذا الرجل المُسِن الذي يلقبه منصور بأرباب العزبة، يصدر أوامره لعمالها ولا يكتفي بِنهرِهم وزجرهم، بل يطال الأمر منصور وأبنائه.

توقف بسيارته قرب الاستراحة. بعد أن وضع أغراضه داخل غرفة الاستراحة، أخذه مراد في جولة كالمعتاد حول العزبة، التي كان في ركنها اليمين حظيرة للماشية أو ما يطلق عليه باللهجة الإماراتية "الحلال"، كما توجد حظيرة للنعام والغزلان، وحظيرة لحصان أشتراه منصور مؤخراً. لاحظ مراد أن سيفاً على غير عادته، لا يتبادل الحديث كثيراً معه. عند العودة إلى الاستراحة يقف مراد أمامه، أخذ بيده ليضعها بين يديه قائلاً:

- سيف أنت تعلم أنك مثل ولدي. الموت حق على الجميع، وما تريده أسرتك الآن هو الدعاء والصدقة.

يتذكر سيف صلاة الاستخارة والإشارة الإيجابية لها من خلال حديث مراد. يأخذ برأس مراد ويقبله...

- جزاك الله خير أبوي مراد.

خبز رقاق والحليب بالشاي وحليب النوق، كانوا بانتظار سيف في مجلس الاستراحة. ينظر إلى ساعته التي تشير إلى الثامنة صباحاً، لا تزال هناك سويعات تفصل ما بين أن يبقى معه البريد الإلكتروني t.b.t@psvi.com أو يفارقه هذا الأخير إلى غيره. ينظر الى الأفق مناجياً نفسه:

- ها أنا يا حمدان قد اخترت هذا المكان بعيداً عن ضجيج الحياة لأبدأ مسيرتي في أغوار حياتك. و ها هو مراد وقد أعطاني دافعاً آخر لأن أمضي معك علني أستطيع مساعدتك. لا أخفيك أن حديث نفسك لك قد أجزعني ولكن الاستخارة وعلاماتها صرفت عني ذلك.

يتناول سيف إفطاره، ويأبى إلا أن يشاركه مراد فيه. يسترجع بعض المواقف والمقالب التي كان يقوم بها مع شقيقه منصور لاستفزاز مراد حينما كانا صغيرين. ويذكره مراد أيضاً بتلك العصا التي كانت قد تركت علاماتها على ظهره وأخيه بتشجيع من والديهما.

ينصرف مراد إلى عمله بعد أن جمع الأطباق بمساعدة سيف الذي جلس خارج الاستراحة حاسر الرأس. فتح كمبيوتره الشخصي، مسنداً ظهره إلى جدار الاستراحة واضعاً وسادة

أسفله. يعود إلى الرسالة البريدية التالية للرسالة الثامنة من البريد الإلكتروني .t.b.t@psvi.com

ضغط سيف على الزر "نعم" في انتظار رحلة دهاليز الخطايا التي اقترفها حمدان بن مجرن. مراد كعادته أرباب العزبة الآمر الناهي، يفرك أذن ابنه "يونس"، لتركه باب حظيرة النعام مفتوحة. يشاهد سيف المنظر مبتسماً تعود به الذاكرة إلى مواقف في الماضي مع أرباب العزبة. صوت نغمة الرسالة البريدية قد وصلت ليعود ناظره إلى شاشة الكمبيوتر..

عنوان الرسالة:

"الخطيئة الأولى لحمدان بن مجرن بن ذيبان"

- تحياتي لك أخي سيف، وأسأل الله أن يجعل عملك خالصاً لوجهه الكريم، وفي ميزان حسنات والديك وأهلك أجمعين.

ما إن بدأ سيف بقراءة مضمون الرسالة؛ حتى قال بصوت عال:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قالها وقد قذف بكمبيوتره الخاص بعيداً عن حجره، ليسقط على الفرش الذي خفف من وطأة الارتطام. يناديه مراد وهو قادم مهرولاً يتبعه يونس، يدنو منه واضعاً يده على كتفه:

- ما الأمر هل هناك أفعى أو عقرب قل لي ما بك؟.

يفتش مراد ومعه يونس المكان ولكن لا شيء هناك بينما لازال سيف مصدوماً مما قرأه، يلتفت إلى مراد:

- ها، لا شيء لا شيء أبوي مراد.

ينظر مراد إلى سيف رافعاً حاجبه الأيسر ذا الشعر الأبيض الكثيف والذي تباعدت شعراته:

- يبدو أنك عدت إلى مقالبك السابقة، لعلك تريد أن تضع هذه العصا علاماتها على ظهرك من جديد؟.

ينصرف مراد لشأنه وهو يتمتم عبارات بلغته البلوشية محركاً رأسه يمنة ويسرة، فلا يجد سوى ابنه يونس ليلطشه بالعصا على مؤخرته، يجري يونس ضاحكاً فاركاً بنطاله بأصابع

يده اليمنى علها تخفف من وطآة تلك اللطشة.

عاد سيف من جديد ليلتقط كمبيوتره مسترجعاً ما قاله حمدان سابقاً **"لا فائدة من تكفير خطاياك، فهي من الفظاعة ما لا يمكنك أن تعوّض من أجرمت بحقهم"**هل جزعت يا سيف مما قلته لك؟ هل ذهبت إلى زر "لا" لتنسحب. إن لم تكن فعلت، فها أنا أكرر ما قلته لك، نعم لقد **"قتلت نفساً ودفنتها دون عِلم أحد"**. شاركني فيها وفي بقية خطاياي شخص اسمه "معيوف".

نفث سيف زفيراً طويلاً قائلاً:

- وكيف سأساعدك بعد أن أزهقت روحاً ودفنتها ليكون جرمك جرمين يا حمدان؟ ومن معيوف هذا؟ وهل أنت من أفسدته أم هو من أفسدك وحرّضك على التصرف بهذه الطريقة؟

يُكمل قراءة الرسالة:

- قبل أن أقدم لك الطريقة لمساعدتي، دعني يا سيف أحدثك عن تفاصيل هذه الحادثة وما تلاها من خطايا؛ ثم ننتقل إذا أكملت معي الرحلة، لمعالجة أو تعويض من وقع عليهم جرمي.

يسحب الوسادة من تحته ليضعها خلف ظهره استعداداً لمعرفة بشاعة هذا الحدث...

- كنت في الحادية والعشرين من عمري. لعلك ستتساءل عن مراحلي السابقة. كنت يا سيف الابن المدلل جداً لجدي الذي أفرط كثيراً في توفير كل ما أريده، وكان يقف دائماً بوجه أبي إن أراد ضربي لأي سبب كان. زاد جدي من فرط حبه لي، فزدت في عنجهيتي وعدم مبالاتي حتى بات ذلك جزءاً من شخصيتي. رافقني معيوف في جميع مراحل حياتي ودراستي وعملي، وكان خاتماً في إصبعي، يأتمر بإمرتي وينفذ ما أُريد، أو لعلني هذا ما كنت أعتقده.

لم أصدق يا سيف أن أتجاوز حاجز الثانوية العامة التي سقطت فيها مرتين وفي الثاني الثانوي مرة وكذلك كان حال معيوف. كبقية زملائي تسمرت أمام الراديو بانتظار معرفة النتيجة. وصل المذيع إلى مدارس منطقة دبي التعليمية، كُنا نتناوب أنا ومعيوف على التسمر أمام المذياع والخروج للتدخين والعودة للجلوس أمام المذياع. أخرجت سيجارتي سحبت النفس الأول ثم ألقيتها وأنا أجري باتجاه المذياع بعد أن نادى عليّ معيوف. ألصقت أذني اليمنى بسماعة المذياع للاستماع إلى المذيع:

- "مدرسة الإمام مالك الثانوية" حمدان بن مجرن بن ذيبان 59%.

قفزت فرحاً بالنتيجة تبعني معيوف الذي نجح بالنسبة ذاتها. لعلك تستذكر تلك الأجواء يا سيف، فملامحك العمرية حين التقيت بك كانت قريبة من جيلي.

ابتسم سيف مستذكراً تلك الأيام، ولكنها غابت سريعاً بعد تذكر الجُرم الذي ارتكبه حمدان... عاد إلى الرسالة:

- انطلقت بعدها لأزف الخبر لجدي الذي وعدني بسيارة في حال نجاحي بعد أن سحب أبي السيارة التي اشتراها لي جدي وقام ببيعها بعد رسوبي للسنة الثانية في الثانوية العامة. لهذا السبب يا سيف، وعلى غير العادة كنت متحمساً ومتوتراً لسماع نتيجة تلك السنة، أما التي قبلها والتي سبقتها فكنا أنا ومعيوف نلهو غير مكترثين على الإطلاق.

بعد أن وصفت لجدي النسبة التي حصلت عليها وكأنها نسبة لا يصل لها إلا النوابغ؛ أخذ عقاله عن رأسه ورماه عالياً فرحاً بهذا الخبر. وما هما إلا شهرين حتى وصلت سيارتي الرياضية نيسان فئة "GT SKY LINE"، والتي سبقها بسنة حصولي على رخصة القيادة التي لم تكن سوى تحصيل حاصل بعد أن تحملت سيارة العزبة بداياتي في القيادة حتى أصبحت ماهراً فيها.

بدءاً من الخامسة عصراً حتى منتصف الليل، ولتخفيف وطأة قيظ الصيف، كنت أقود سيارتي دون توقف مع معيوف. ففي تلك الفترة، جرت العادة أن يتمّ قيادة السيارة الجديدة بدون مكيف ودون سرعة المئة كيلومتر في الساعة؛ حتى تقطع مسافة ألف كيلومتر، بعدها يتمّ إعادتها إلى ورشة الصيانة لإجراء الفحص الأول لها. كنا ننطلق أنا ومعيوف نجوب الشوارع غير مكترثين بذلك اللهيب، نتوقف بين فينة وأخرى أمام البقالات لتناول بعض المرطبات وأهمها "أريج البرتقال" أفضل مشروب لنا. كان المغني أبو بكر سالم يصدح بأغنيته "يا سمار"، وحين كان يصل إلى بيت الشعر "يا لهفة المشتاق شوقي ما انطفئ يلهب لهيب النار" كنت ومعيوف ينظر كل واحد منا إلى الآخر ونردد، "يلهب لهيب النار" محركين راحة يدينا باتجاه وجهينا للتعبير عن لهيب الصيف، والهبوب التي تلفح وجهينا في حالة ضحك هستيرية.

خلال اسبوعين كنا قد أنجزنا المهمة، وتخطت سيارتي حاجز الألف كيلومتر. وبعدها لعلك تتخيل ما الذي حدث.

سكب سيف بعض من ماء وعاء الفناجين دون قصد بعد أن مدّ رجليه لترتطم بذلك الوعاء. نظر إلى دلة القهوة، ولكن رغبته بمعرفة ما حدث جعلته يصرف النظر عن تناول فنجان منها. لا زال مراد يناوش وينهر يونس وبقية العاملين في العزبة الذين كان لمؤخراتهم وظهورهم نصيب من عصاه. عاد سيف للرسالة البريدية :

- في اليوم التالي انطلقت مع معيوف إلى مدينة العين، حيث كُنا في زيارة لأحد أصدقائنا وكانت فرصة للتباهي بسيارتي. أخذنا نجوب شوارع العين بعدها توجهنا إلى مزرعته في منطقة سويحان.

إنها الواحدة والنصف ليلاً، عند عودتنا إلى دبي وفي طريق زراعي بين مزارع سويحان حيث الظلام الدامس، وبعيداً عن أعين شرطة المرور، انطلقت بسيارتي سريعاً يشجعني في ذلك معيوف وصوت أغنية يا سمار لأبي بكر سالم تخرج من المسجل بأعلى صوت. وصلت بسيارتي إلى سرعة 140 كليومتراً، وكان المقطع "يلهب لهيب النار" قد شارف أن يصدح به المُغني، فما كان مني ومن معيوف إلا أن نظر أحدنا الى الآخر لنكرر الحركة ذاتها، أطلقت يدي من المقود لإكمال الحركة، عيني بعين معيوف، وفجأة، يتداخل مقطع "يلهب لهيب النار" بصوت ارتطام، يأتي بعدها صوت الفرامل التي دفعت بمعيوف باتجاه المسجل ليطفئه بكتفه.

يتزامن مع ذلك الارتطام ارتطام رجلي سيف مرة أخرى بوعاء الفناجيل؛ لتتطاير مع الماء بعيداً وكأنه كان يحاول أن يكبح الفرامل مع حمدان. توقفت السيارة بعد أن غطاها دخان الفرامل. ظلام دامس تحاول مصابيح المزارع البعيدة أن تكسره، وسكون ليل لا تسمع فيه سوى صوت صرصار الليل. رائحة كريهة تنبعث من دخان الإطارات. الصمت ما زال مطبقاً على حمدان ومعيوف من الصدمة. يعود سيف ليُكمل رسالة حمدان:

- بعد أن التقطت أنفاسي يا سيف بصعوبة نتيجة ارتطام صدري بالمقود بقوة، نظرت إلى الزجاج الأمامي للسيارة ثم أمسكت بوجه معيوف بيدي لأتأكد من حالته. لم أجد إلا تورماً على جبهته من دون سيلان دماء. عدت من جديد أنظر إلى الزجاج الأمامي الذي تشقق، وإذا بخطوط دم تنزل من أعلى الزجاج لتلتحم بتلك الانشقاقات في الزجاج وتمضي متعرجة، وكأنها ترسم لحياتي القادمة.

أمسك سيف بالوسادة التي على يمينه، وضعها على الأرض ثم وضع كمبيوتره ونهض واضعاً يديه على شفتيه يمشي في الشرفة تارة يسرة وأخرى يمنة. تساؤلات جمة تزاحم فكره. يعود من جديد إلى ما سيبوح له حمدان...

- دقائق مضت حتى بدأنا أنا ومعيوف نستدرك الأمر، فتحت باب السيارة بصعوبة، ظننت أنه تأثر بذلك الارتطام، لكنه كان مثقلاً بالوزر الذي سيثقل كاهلي. بعد خطوات قليلة عدت من جديد إلى السيارة حيث لم أستطع رؤية شيء نتيجة ذلك الظلام الدامس، استدرت بالسيارة وقمت بتشغيل الضوء العالي الذي كان يصدر من مصباح واحد بعد أن تعطل الآخر نتيجة الارتطام. يتقدمني معيوف مشياً وأنا أتبعه بالسيارة، كانت المسافة بين الارتطام وتوقف السيارة قرابة 200 متر في واقعها، ونفسي تصورها مئات الكيلومترات، علَّي أهرب مما تصوّره لي.

يضع سيف يده اليسرى على ذقنه قائلاً:

- وهل كانت ستكفيك تلك الكيلومترات عن حصيلة ما صنعه تهورك يا حمدان؟.

- جسد مسجى على الأرض غارق في دمائه يا سيف. نظر إليَّ معيوف وقد اقترب من تلك الجثة محركاً رأسه ليوحي بأن تلك الجثة أصبحت جسداً بلا روح. انطلق معيوف باتجاهي ليوقف الحركة الهستيرية التي قمت بها بطريقة لا إراديةً ضارباً برأسي مراراً وتكراراً على المقود. أمسكني بقوة قائلاً:

- هذا ليس وقت الصياح والنياح يا حمدان، لا بدّ أن نتصرف قبل أن يُدمَر مستقبلنا.

نظر سيف إلى الكثبان الرملية الممتدة خلف العزبة، وهو يردد حسبي الله عليك يا معيوف ونعم الوكيل حسبي الله عليك ونعم الوكيل.

- لعلك بدأت يا سيف تُحملَ معيوف الذنب مثلي. البعض يرى منه وقفة شهامة ونخوة، والبعض يراه دالاً على الشر، ولكن في نهاية المطاف نحن من نقرر. نحن مخيرون ولسنا مسيرين. انتهى بي المطاف أن استجبت لمعيوف الذي حذر من أضرار الإبلاغ عن الحادث وِما له من عواقب وخيمة على مستقبلي، وعلينا إما التصرف ودفن السر، وإما المقامرة بالمستقبل.

مع سماع أصوات بعض المزارعين من بعيد، لم تكن سوى لحظات حتى لففنا الجثة بقماش أبيض كنا قد اشتريناه من محل أقمشة معروف باسم "دبدوب" في مدينة العين. وبدل من أن يكون ذلك القماش دشداشة إماراتية إذا به يتحول إلى كفن.

كان لا بدّ من اتخاذ قرار حاسم ومصيري. دُفنت الجثة ودُفن معها سرها، وتقادمت السنون ليتحول ما ينبض في الضلوع إلى حجر استهان لاحقاً بخطايا أُخرى. لا داعي لأن تسأل نفسك يا سيف كيف لم يُكتشف الأمر، فمسرح الجريمة كان بعيداً عن أن يتمّ اكتشافه في الحال.

في منطقة صحراوية بالقرب من الخوانيج في دبي، حفرنا أنا ومعيوف تلك الحفرة و وضعنا الجثة فيها، وكان قبلها قد دُفن **ضمير وقلب**.

كيف تمّ إصلاح السيارة دون أن يكون هناك تصريح من إدارة المرور؟. لعله السؤال الذي يدور في خلجات فكرك أيضاً. الأضرار تركزت في الزجاج الأمامي والمصباح الأمامي الأيمن، تولى معيوف الأمر عن طريق أحد أصدقائه الذي يمتلك محل تصليح سيارات في صناعية الشارقة.

لاحظ أفراد عائلتي أنني لم أقَد سيارتي لأكثر من ثلاثة أشهر متتالية، وكنت أتعلل دائماً أن معيوفاً يصرّ عليّ أن نخرج بسيارته. سبب غير مُقنع لشاب في مقتبل عمره فرح بهذه السيارة الرياضية، ولكن لم يكن الموضوع ذا أهمية للآخرين، فكلٌ لديه اهتماماته التي تغنيه.

ظل كابوس ذلك الحادث يلاحقني. الخوف من كشف الجريمة انتهى بعد انقضاء ثلاثة أشهر. حلِمتُ بذلك الرجل وهو واقف وبجانبه امرأة وأربعة أطفال. كانت صورة وجهه في الحلم ضبابية، ولعلها انعكاس للواقع، لأنني لم أستطع رؤية وجه الجثة وأنا أدفنها مع معيوف.

سنون طوال وها أنا أريد أن أصحح ما اقترفته من ذنب. سنون طوال وها أنا قد أصبحت تحت الثرى أستنجد بغيري ليكفر عن أخطائي. لماذا بعد كل هذه السنين؟. قد يتبادر إلى ذهنك هذا السؤال ولعلني أكشف لك السبب لاحقاً. أما الآن فهل لا زلت راغباً في إكمال رحلتي معي يا سيف؟. أتمنى ذلك

"انتهت الرسالة"

"نخطئ في حق أنفسنا، ويستدعينا الجانب الخيّر لنُكفر عمّا اقترفنا، ينطلق بعضنا ليجد أمامه سداً منيعاً يحول دون ذلك. إنه سد الأنا والمُكابرة"

(9)

أخرج سيف الشاحن من حقيبة كمبيوتره الخاص، ضغط على الزر "نعم" لمواصلة رحلة حمدان. نهض واضعاً يديه على نهاية ظهره مرجعاً ظهره إلى الوراء بعد طول جلوس وركل لوعاء الفناجيل. اقترب من حاجز الشرفة ليضع معصمه الأيسر على حافتها بينما وضع ذقنه على راحة يده اليمنى. يراقب يونس وهو يضع الطعام داخل حظيرة الحصان الذي أصبح رهين يونس ومراد في إطعامه وإبقائه على قيد الحياة. وها هو حمدان بعد أن أصبح القبر مثواه فلا حيلة له للتكفير عن أخطائه سوى بمساعدة غيره له.

عاد إلى متكئه بعد أن سمع نغمة الرسالة الجديدة. رسالة بريدية من العنوان البريدي t.b.t@psvi.com بعنوان:

"العلاج من الذنب بخطايا متلاحقة"

- نعم يا سيف عالجت الذنب بخطايا أخرى. كان لمعيوف تأثيره عليَّ ولكن في نهاية المطاف، فعلت ذلك بملء إرادتي. في البداية كنت أرفض رفضاً قاطعاً أفكاره التي يراها ستساعدني للخروج من الخطيئة الأولى، ما لبث ذلك الرفض أن تحول إلى تردد، وانتهى بي المطاف أن أزاحم معيوفاً في التفكير ووضع الخطط للخطايا اللاحقة.

بعد انقضاء ثلاثة أشهر على الحادثة، أصرّ معيوف على أن نعود إلى حياتنا الطبيعية كي نُبعد أية شكوك. خرجنا سوياً إلى مقهى "لسه فاكر" الكائن في منطقة "الرقة" في دبي حيث اعتدنا تدخين النرجيلة منذ الصف الثاني الثانوي. في ذلك المقهى الذي تسمع صوت أم كلثوم يصدح خارجه، تفترش الطاولات الرصيف المقابل، يضطر معها المارة من مختلف الجنسيات للنزول إلى الشارع ثم الصعود من جديد إلى الرصيف. يضع بعضهم خلال المرور أمام المقهى يده على فمه وأنفه من رائحة دخان النرجيلة. تسمع فيها القهقهات وأصوات نرد لعبة الطاولة، يليها صوت حجارة لعبة الطاولة داخل الصندوق. رُصَّت الكراسي جنباً إلى جنب أمام التلفاز لمتابعة مباراة الأهلي والزمالك المصري. مع دخولنا إلى المقهى قفزت مجموعة يرتدي بعضها قمصاناً حمراء ابتهاجاً بهدف الأهلي على الزمالك. أخذني "الكابتن عطية" الذي يسمي نفسه عمدة المقهى بالأحضان فرحاً بهدف النادي الأهلي، وبصوت مرتفع:

- ما هذا يا عم حمدان، دخلت القهوة وإذا بالأهلي يحرز هدفاً. اخرج وارجع بعد خمس دقائق علّ الأهلي يحرز هدفاً آخر. لقد طالت غيبتك، معيوف قال لي إنك زعلان. لا تحمل

هماَ، بمناسبة هذا الهدف أعدك أنك لن تخرج من هنا إلا وأنت في حال آخر.

على غير العادة أصرّ معيوف وعطية على أن نجلس في كابينة بدلاً من مكاننا المعتاد وهو الركن الأيمن من المقهى. لم يكن النفس الأول الذي سحبته من النرجيلة في تلك الليلة سوى الانطلاق نحو عالم جديد، مع كل زفير فيه دخان، قطرات دم ضمير تسيل. لقد أصبح الحشيش والماريغوانا طريق النظر إلى حادثة القتل على أنها مبررة لتخفيف هول ما سيأتي بعدها، فالخطايا القادمة كما يراها معيوف، لا تعدو كونها أخطاء بسيطة مقارنة بالخطيئة الأولى. أحسست بداية أن دخان النرجيلة مختلف عن دخان المعسل الذي تعودت على تدخينه، ولكن معيوف كان قد أعدّ العدة مع عطية. أخذ معيوف خرطوم نرجيلتي، سحب نفساً، ثم تبعه عطية بسحب نفسٍ آخر. مسح عطية فوهة ليَّ بالمنديل ووضع فلتراً جديداً قائلاً:

- شد يا عم حمدان، فهذه النرجيلة ستغير حالك، وتجعلك وكأنك تسبح في السماء.

اكتشفت لاحقاً أنني أصبحت من مدمني الحشيش. أصبحت بعدها أكثرُ تحرراً من تلك الخطيئة لأستسهل بعدها الخطايا التي سأرويها لك تباعاً...

انتبه سيف لصوت بوق سيارة الدكتور حمدان. وضع كمبيوتره على الوسادة على يمينه بعد أن أطبق شاشة كبيوتره بلوحة المفاتيح. خاطبه الدكتور حمدان:

- صباح الخير يا صديقي. ما شاء الله سبقتني.

- حياك الله، خرجت بعد صلاة الفجر مباشرة، وتسليت بمشاكسة مراد.

- أين هو لدي أغراض كثيرة في السيارة، مراد يا مراد.

- خرج منذ ساعة، دعني أساعدك.

بعد إفراغ السيارة من الأغراض وتناول القهوة، أخذ سيف الدكتور حمدان في جولة في العزبة. كان الدكتور حمدان في كل مرة يقف فجأة لينظر إلى سيف باستغراب شديد نتيجة ما كان يدهشه مما يسمعه. عند عودتهم إلى الاستراحة وقف الاثنان على حاجز الشرفة، ينظران إلى ذلك الحصان. التفت الدكتور حمدان إلى سيف قائلاً:

- بغض النظر عن بشاعة ما قام به حمدان، تذكر أنه أصبح رهين مساعدتك أو غيرك. أنصحك أن تمضي فيما أنت فيه ولاحظ بنفسك كيف ساعدك حمدان على أن تخرج من تلك الحالة التي أنت فيها.

التفت سيف إلى كمبيوتره الذي أصبح صديقه المقرب وحلقة الوصل بينه وبين حمدان وأسراره:

- لعلي أنا يا دكتور من أصبحت رهين حمدان ورسائله البريدية..

مع حلول المغرب واختفاء الشمس خلف الكثبان الرملية المتناثرة لتزيدها احمراراً، وبعد الانتهاء من صلاة المغرب والعشاء جمعاً وقصراً، غادر الدكتور حمدان العزبة بينما قرر سيف أن يقضي ليلته فيها. دخل إلى غرفة الاستراحة وبعد حمام دافئ، عاد من جديد إلى الشرفة وكمبيوتره. كانت العزبة قد سكنت مع سكون من فيها. أبحرت الماشية في سباتها وبقية الدواب، بينما أشعل يونس النار داخل البرميل استعداداً لصنع الخبز على طريقة أهل المزارع والعزب. راح بقية عمال العزبة لأخذ حمام دافئ بعد يومٍ طويلٍ من العمل، بينما يشرف مراد على مرقة الدجاج التي كان يعدها أحدهم..

عاد من جديد إلى حمدان عبر صديقه المقرب. فتح الكمبيوتر وعاد إلى الرسالة البريدية التي كان عنوانها "العلاج من الذنب بخطايا متلاحقة".

- لم أكن على استعداد يا سيف للعودة إلى الدراسة من جديد، فالثانوية كانت بالنسبة لي هي المرحلة الأخيرة بالرغم من محاولات العائلة إقناعي بالالتحاق بجامعة الإمارات التي جرت العادة على تسميتها جامعة العين. جمارك دبي كانت هي وجهتي للبدء بالعمل أنا ومعيوف. بعد فترة التدريب، التي استمرت قرابة ستة شهور، تمّ تثبيتنا في العمل كمشرفين مساعدين لمراقبة البضائع والعمل على دخولها وتسجيلها. كان ذلك تحت إشراف مسؤول من الجنسية السودانية يُدعى "التاج عبدالله" الذي لديه من الخبرة ما يزيد عن ثماني سنوات.

خطيئتي الثانية لم تكن بعيدة عن مقهى لسه فاكر، بل كانت بسببه ومنه. خلال السنة التي أمضيناها أنا ومعيوف في جمارك دبي، أصبح لدينا معارف وعلاقات سواء كان في الجمارك أو في مطار دبي. في مقهى لسه فاكر، وجلسة الحشيش انضم إلينا شخص يُدعى "سيد الأسواني" قدمه لنا العمدة عطية على أنه قريب له. كان دائم السؤال عن طبيعة عملنا وكيف هي إجراءات التفتيش ومراقبة البضائع. لم نكترث لهذه الأسئلة، ولم نكن نعلم أن وراءها هدفاً يسعى له الأسواني. بعد مرور سنة على عملنا، وبينما كنا في تلك الكابينة. توقفت ومعيوف متسمرين ينظر بعضنا إلى بعض. غادر الأسواني الكابينة قائلاً:

- خذا وقتكما في التفكير ولكن تذكرا غيركم يتمنى هذه الفرصة ويحلم بها.

خرجت مع معيوف نجوب شوارع دبي حتى توقفنا أمام شواطئ جميرا. وضع معيوف يده اليمنى على المسند واليسرى على مقبض الباب ليستدير نحوي قائلاً:

- حمدان أنت تعرف أننا دائماَ نحلم أن تكون لدينا شركة نقل ثقيل، فأرباحها طائلة. مثل هذه الشركة تحتاج مبلغاً كبيراً وعملنا الحالي لن يحقق لنا ما نريد. سبعون ألف دولار أتعرف كم يقابلها بالدرهم الإماراتي؟ ربع مليون درهم تقريباً يا حمدان.

- وما هي هذه البضاعة التي تجعله يدفع لنا هذا المبلغ الكبير يا معيوف. هل تريدنا أن نتورط بخطيئة ثانية؟.

- اسمعني يا حمدان، لقد مضى على ما حدث قرابة السنة، وقد تجاوزنا ذلك. لن نخسر شيئاً من هذه الخطوة ولن نضر أحداً. الأسواني قال إنها بمجرد أن تصل سيرسلها إلى دولة أخرى، ونحن لا نعلم من الأساس ما هي هذه البضاعة ومحتواها.

- مخدرات يا معيوف مخدرات. هل تعتقد مثلاً أنها بضاعة عادية. أتعرف عقوبتها؟

- هل قال إنها مخدرات؟ قال بضاعة. قد تكون ألماساً أو غير ذلك. ولا تخف لدي خطة لو تبين أنها مخدرات وتمّ اكتشافها فإننا سنخرج منها مثلما يقول المصريون "زي الشعرة من العجين".

عاد سيف بظهره إلى الوراء، ينظر إلى السقف حيث تلك المروحة التي تدور لتقطع في دورانها نور مصباح عُلق فوقها. وهي كذلك حياة حمدان كما يراها سيف يأتي معيوف بخططه لتُقطع ما تبقى من نور يعيد للضمير طريق العودة إليه. يعود من جديد الى الرسالة..

- كما قلت لك يا سيف نحن مخيرون ولسنا مسيرين. ليس لمعيوف سلطة عليّ، وليس لي عليه كذلك. نحن فقط من نختار طريقنا، ويأتي الآخرون عوامل مساعدة، إما للخير أو للشر، ولكن في نهاية المطاف **{لا تزر وازرة وزر أخرى}**. لقد كانت خطة معيوف يا سيف مُحكمة للغاية.

من خلال الأسئلة التي كان يطرحها الأسواني، كنا نتوقع كما أنت تتوقع ربما، أن مسرح الخطيئة الثانية سيكون جمارك دبي. ولكن كان الأمر مختلفاً، ولعل تلك الأسئلة كانت لأمر لاحق حيث تدور رحى الخطيئة الثالثة، ولكن الخطيئة الثالثة كان لها مسرحها البعيد عن الجمارك أيضاً.

بعد رحلة من التفكير المُعمق مع معيوف وإلحاح من العمدة عطية الذي سيكون له نصيب لو وافقنا على تنفيذ ما أراده الأسواني. طلبنا الاجتماع مع الأسواني مرة أخرى.

في الكابينة ذاتها تولى معيوف الحديث بعد أن اكتملت خطته المُحكَمةِ. رجع معيوف بظهره إلى الوراء واضعاً ذراعه على ركبته اليمنى وفي يده خرطوم النرجيلة. سحب منه

نفساً عميقاً كاد أن يغص به. أطلق الدخان بكثافة من أنفه وفمه، نظر إلى الأسواني قائلاً:

- حسناً نحن موافقان ولكن لدينا شروطنا.

مدّ الأسواني رجليه إلى الأمام ممسكاً بيديه الاثنتين خرطوم النرجيلة، سحب نفساً حتى كاد خداه يلتصقا أحدهما بالآخر، عاد لينفث الدخان مشكلاً سحاباً دخانياً طغت على سحابة معيوف، نظر بطرف عينه إلى معيوف، وكأنها إشارة إلى تفوقه عليه. استدار بعدها الأسواني باتجاه معيوف:

- حسناً يا عم معيوف ما هي الشروط؟

- تسليم مبلغ 50 ألف درهم قبل السفر إلى تايلاند، وفي حال دخول البضاعة يتم تسليم بقية المبلغ عند تسليمك إياها، واذا تمّ كشف البضاعة؛ فلن يتم استرداد الخمسين ألفاً.

ما إن سمع الأسواني وهو يشد نفساً حتى انطلقت ضحكته زاحمها السعال والدخان من فمه..

- استرداد ماذا يا عم معيوف، وقتها ستكون أنت وحمدان وراء الشمس.

- هذا قرارنا ونحن نتحمله. قل لنا إن كنت موافقاً لنطرح شروطنا الأخرى.

- موافق موافق يا عم..

عدّد بعدها معيوف بقية الشروط والتي لم تكن تشكل معضلة للأسواني، فالخطة محكمة والعلاقات التي لدينا في المطار ستجعل مرور البضاعة سهلاً..

يعود سيف برأسه مسنداً إياه إلى الجدار رافعاً ناظريه إلى السقف، يحاول أن يتخيل كيف هي خيوط تلك الخطة، ومن سيقع في شِراكها، تماماً كتلك الحشرة الطائرة التي وقعت في شِراك خيوط العنكبوت التي نسجتها على طرف ذلك السقف. يعود إلى الرسالة البريدية..

- بعد رحلة استغرقت ست ساعات، وصلت إلى تايلند مع معيوف الذي زارها قبل ذلك مرتين. اختار معيوف فندق "جريس" للإقامة فيه. ذلك الفندق المعروف لدى الخليجيين. كان في استقبالنا شخص تايلندي يُدعى "سومجاي" أطلق بعض الكلمات العربية المتناثرة هنا وهناك.

في اليوم التالي أخذنا في رحلة حيث ركوب الفيلة، ثم حديقة الحيوانات، واستعراض فكاهي لمجموعة من القردة. أما في المساء، فكنا نمر بعدد من الأسواق ذات الأزقة الضيقة التي يجتمع فيها الصالح والطالح، وكانت العبارة التي تشدّ انتباهنا ونضحك بمجرد سماعها

هي "شحم لحم". نساء بملابس فاضحة تتحسس أكتاف الرجال خلال مرورهم. لم أعر أي انتباه لمثل ذلك، ليس عدم رغبة وإنما خوفاً من القادم. وفي اليوم الثالث والأخير لنا في تايلند قَدم لنا "سومجاي" ثلاثة فيلة خشبية على أنها هدية لصديقه الأسواني. دب الفزع في قلبي وما الذي يمكن أن تفعله هذه الفيلة بمستقبلي. ذهبنا أنا ومعيوف إلى السوق حيث اشترينا حقيبةً إضافية للبضاعة لنحملها معنا في كابينة الطائرة. لم أستطع النوم في تلك الليلة بينما صوت شخير معيوف يصم الآذان، لعله مطمئن لخطته المُحكَمةِ. وما إن غفوت قليلاً حتى فزعت من كابوس أقضّ مضجعي.

هزّ سيف رأسه قائلاً في نفسه:

- وما الذي كنت تتوقع أن تحلم به يا حمدان غير الكوابيس وأنت تستعد لخطيئتك الثانية.

- لقد حلمت أن تلك الفيلة الثلاثة، قد تحولت إلى فيلة حقيقية، هاجت، وماجت، وتقدم كبيرهم رافعاً يده اليمنى ليدك بها جمجمتي بكل قوة. وضعت يدي على كتف معيوف أرجه رجاً:

- معيوف معيوف..

استيقظ معيوف فزعاً:

- ها،ها ماذا، ما الذي حدث؟.

سردت له الكابوس، أخذني معه إلى البلكونة، أشعل سيجارة، وبعد أول نفس أشاح بوجهه نحوي، وأنا واضعاً راحة يدي على أذني ورأسي ساحباً شعري بأصابعي قائلاً:

- حمدان، ها هي الفيلة في الحقيبة، ولا زالت مصنوعات من خشب لا تدب فيها الروح، و يا أخي أنت تعلم أن الخطة مُحكمة. فلن تحمل أنت ولا أنا هذه الحقيبة. فإن انكشف الأمر، فسنكون في مأمن من ذلك.

عدت إلى الفراش محاولاً النوم، ولا أدري إن كانت عيني قد ذاقت النوم أم لا. في السادسة صباحاً توجهنا إلى مطار بانكوك الدولي، مرت الأمور بسلام حيث كان لـ"سومجاي" علاقاته القوية التي مررت الحقائب دون تفتيش. غادرت الطائرة مطار بانكوك في رحلة تستغرق ست ساعات. لم أستطع أن أتناول شيئاً في الطائرة رغم جوعي، بينما التهم معيوف وجبته ووجبتي معاً. مع اقترابنا من مطار دبي في رحلتنا رقم **20-2-20**، كانت دقات قلبي تتسارع أكثر فأكثر. بعد الانتهاء من ختم الجوازات، توجهت أنا ومعيوف إلى حزام الحقائب، قبلها كنا قد اقتربنا من ذلك الجهاز الذي نضع فيه الحقائب التي حملناها معنا داخل مقصورة الطائرة. كنت فزعاً للغاية، نظر إلي معيوف ضاحكاً:

- يا غبي أنت خائف من ماذا؟ هل حقيبتك تحمل الفيلة الخشبية؟

في الحقيقة يا سيف،الفيلة لم تكن بصحبتي، ولكن الموضوع برمته كان مخيفاً.

بعد مرور حقيبتينا، توجهنا إلى حزام الحقائب الكبيرة، وصلت حقيبتي أولاً ثم حقيبة معيوف. كنا أجساداً أمام ذلك الحزام وكانت أعيننا وكياننا، عند ذلك الجهاز الذي تمر به الحقائب الصغيرة. فجأة، أمسك معيوف بذراعي اليمنى، ويده الأخرى على عربة الحقائب قائلاً:

- حمدان، هيا تحرك تحرك ولا تلتفت وراءك.

تحركنا وتحركت الفريسة، لتسقط في الشرك الذي نصبناه أنا ومعيوف ليقع فيه بدل أن نقع نحن في حال اكتشاف البضاعة..

بينما كانت الحقيبة قد وضعت على ذلك الجهاز، كان عدد من الضباط يقومون بجولة تفقدية. توقفوا عند الجهاز الذي مرت به تلك الشنطة وكإجراء روتيني طلبوا من المسؤول على الجهاز فتح الحقيبة. كانت الفيلة الثلاثة قد لُفت بقماش. وبعد أن اتضح أن ما تحت القماش هي فيل خشبية أعادها الضابط إلى الحقيبة. بينما كان الشخص المرافق لنا يهم بإغلاق الحقيبة، وضع ضابط آخر يده علي يده ليوقف غلق سحابها. لاحظ الضابط بودرة بيضاء تتناثر من أحد الأقمشة التي لُفت فيها الفيلة، عاد ليفتح ذلك القماش، وإذا بِرجلِ أحد الفيلة قد تحركت قليلاً من مفصلها لتدفع بذرات المخدرات لتمتزج بالقماش. نظر الضابط إلى رفيقنا الثالث، وبنظرة دهشة نظر رفيقنا إلى الضابط ثم نظر إلينا، ولكننا كنا على وشك مغادرة المطار.

ذهبنا بخطتنا المُحكَمةِ، وتحولت تلك الفيلة إلى فيلةٍ حقيقيةٍ أطبق أحدهم برجليه على مستقبل رفيقنا الثالث. كان ذلك هو "التاج عبد الله".

هل ستطبق على زر "لا" لتنهي رحلتك معي يا سيف أم ستكملها..

"انتهت الرسالة"

"يستقبلهم بزيهم الموحد، تشابهت ألوان ملابسهم؛ فصارت حياتهم فيه سواء. ملابس بذات الألوان، ونمط حياة شبه جامد. تعددت أسباب دخوله حتى وإن كان ظلماً. فصار مأواهم، إنه ذو "القضبان الحديدية"

(10)

التاج عبدالله، سوداني الجنسية، تزوج قبل وصوله إلى دولة الامارات بسنة. وبعد طول انتظار، واكتمال ثماني سنوات في عمله، أتاه اتصال هاتفي من السودان من والده ليبشره:

- مبروك يا أبا عبدالله وعائشة.

لقد أصبح التاج أباً لتوأمين، بعدها رزقه الله بابن آخر أسماه عيسى تيمناً بمديره، وصديقه "عيسى الحمادي". التاج أصبح مصدر الدخل الرئيس لعائلته، ولوالده المُقعد ووالدته بالإضافة إلى أخيه الذي كان في المرحلة الثانوية وقت الحادث.

أخمد يونس النار من تحت البرميل، بعد أن أعد عشرة أرغفة من الخبز ذي الحجم الكبير. أخمد تلك النار، ومعها يتخيل سيف كيف أخمد حمدان ومعيوف مستقبل هؤلاء الأطفال، بل لعل عائلة التاج بأكملها.

لقد كانت خطة معيوف أن يستغل تلك الألفة التي جمعته وحمدان مع التاج خلال عملهما في الجمارك. فوجوده بمفرده في دولة الإمارات، وتقديم دعوة لرحلة مجانية لتايلاند، لم يكن ليرفضها التاج. عند الوصول إلى مبنى المغادرة في مطار بانكوك الدولي، طلب معيوف من التاج أن يحمل الحقيبة التي وضعت بداخلها الفيلة طالما أنه لا يحمل حقيبة يد. تفحص التاج الحقيبة وتأكد من أنها فيلة خشبية. اقتربت الرحلة رقم 20-2-20 من دبي، واقترب معها التاج من شراك الخطيئة الثانية إلى أن وقع فيها.

استدعت الشرطة حمدان ومعيوف للتحقيق معهما. أنكرا أية صلة لهما بالموضوع، على الرغم من دموع التاج واستجدائه بهما، لم يكن للضمير وجود لكشف الحقيقة. أصبح جميع من في العمل يرمقهما بنظرات الشك والريبة. لم يطق عيسى رؤيتهما فطلب نقلهما من إدارته.

عيسى الحمادي، ذلك الشخص الذي تعهد بأن يرعى عائلة صديقه التاج قدر استطاعته. وسط تلك البيئة النابذة لهما، جاءت الفرصة مواتية لتقديم استقالتيهما بعد سنة من فتح مكتب للعقارات، والذي دارت فيه رحى الخطيئة الثالثة والرابعة. الخطيئة الثالثة كان من المفترض أن يكون مسرح جريمتها في جمارك دبي كما كان يخطط الأسواني، لكنها لم تعد ممكنة بعد القبض على التاج، فلم تمر أربع وعشرون ساعة حتى كان الأسواني خارج حدود الدولة. خوفه على مستقبله، لم يكن أقل من خوف حمدان عليه، حتى ولو كانت على حساب مستقبل الآخرين.

أغلق سيف كمبيوتره الشخصي ووضعه في حقيبته. فصل الكهرباء عن المروحة، ينظر لها وهي مستمرةً في دورانها ببطء سبقها نور المصباح. لا زالت المروحة تتحرك ببطء وكأنها تجسد كيف أن خطايا حمدان، كانت تقطع نور الأمل حين كان فوق الثرى، وها هو الوضع يستمر وهو تحت الثرى.

(11)

في صبيحة اليوم التالي وعلى طريق أبوظبي – سويحان، يصطف كالعادة عدد من عمال المزارع على قارعة الطريق، يلوحون بأيديهم اليمنى للسيارات المارة، بينما تقبض أصابع أيديهم اليسرى على كيس بلاستيكي، يحتوي إما ملابس، أو قليل من زاد. ينظر سيف إلى كل واحد منهم، يخيل له شبح ذلك الذي دُفن منذ سنوات مضت. ما هو حال عائلته؟ وهل ما جاء في حلم حمدان يمثل بالفعل عائلة هذا القتيل؟. يقود سيف سيارته ناظراً إلى صديقه الكمبيوتر الذي وضعه على الكرسي الأمامي قائلاً:

- قتيلٌ وسجين، ما الخطايا المتبقية التي سيبعثها حمدان لك لتبوحها لي لاحقاً؟

أكمل طريقه إلى أبوظبي، لاستكمال بعض الأوراق التي طلبتها المحكمة، وبعض المؤسسات الأخرى فيما يتعلق بوفاة عائلته.

عبر طريق الكورنيش، مروراً بجسر الشيخ خليفة، توقف سيف في جزيرة السعديات وتحديداً أمام فندق السانت ريجس. عند بهو الفندق يقدم رجل بزي أفريقي تقليدي، القهوة العربية الإماراتية والتمر في تجسيد لتلاقي الثقافات وتمازجها. أثناء تناوله للقهوة وقعت عيناه على طاولة قريبة من واجهة زجاجية مطلة على البحر. سائر الطاولات شاغرة باستثناء طاولة كان يجلس عليها رجل خمسيني غارق في فكره. وضع حقيبة كمبيوتره عليها، ومضى لأداء صلاة الظهر والعصر جمعاً وقصراً. عند عودته إلى طاولته كانت هناك امرأة مع أطفالها قد جلسوا خلف طاولته. وما إن هَمَ بإخراج كمبيوتره من الحقيبة، حتى أعاده من جديد، طالباً من النادل أن يأتي بطلبه إلى طاولة أخرى، حرصاً منه على عدم إحراج المرأة التي وجه لها طفلها سؤالاً يعصر القلب، ليأتي بعده جواب من أخته التي تكبره، جواب يمزق القلب ويدميه.

تشكيلة من الساندويتشات على طاولة سيف، وأمامه شاطئ البحر حيث أطفال يلهون، بينما عدد من الأشخاص داخل البحر أحدهم حمل طفله على كتفه. يتعارك اثنان مزاحاً يحاول كل منهما إغراق الآخر، وسط تشجيع وضحك من أصدقائهم. وأطفال يقومون ببناء قصر من الرمل بمساعدة ذويهم. بعد الانتهاء من وجبته، طلب الشاي المغربي استعداداً للعودة إلى حمدان وبقية خطاياه.

فتح كمبيوتره الشخصي بانتظار الرسالة البريدية من البريد الإلكتروني t.b.t@psvi.com وصلت الرسالة بعنوان:

"انتقام لكبرياء زائف"

- نعم يا سيف، انتقام لكبرياء زائف. وما المشكلة في ذلك ألم أقتل؟ ألم أزج برجل بريء في غياهب السجون؟ إذن أنتقم لكبريائي حتى ولو جاءت على حساب هدم أسرة بكاملها.

في انعكاسٍ لصورة المرأة وأطفالها في الزجاج الأمامي المطل على البحر وهي تغادر الفندق بعد دقائق قليلة على وجودهم، ترتسم الحيرة على وجه سيف متسائلاً أي خطيئة حدثت لهذه المرأة ليكون سؤال طفلها وجواب ابنتها بهذه الطريقة المؤلمة؟. وأية خطيئة قادمة من حمدان، جاءت على حساب أسرة بأكملها؟.

يعود إلى شاشة كمبيوتره لاستكمال تلك الرسالة..

- "وبعدين معاك، يا أخي احترم نفسك" بهذه العبارة التي قيلت لي أمام معيوف وصديقين لي والتي سبقها إلقاء قارورة ماء، كانت انطلاقة للانتقام لكبرياء وإنهاء لحياة أسرة. نظرات الشماتة في أعينهم، ومعيوف لا يستطيع أن يسيطر على نفسه من الضحك، وبعبارات استهزاء وسخرية يشعل ما في نفسي من كره ورغبة في الانتقام.

في بناية بالقرب من مركز الغرير بدبي، ذلك المركز الشهير فترة التسعينيات، استأجرت مكتبي العقاري على مدخل بناية تتردد إليها النساء لزيارة "صالون الأميرة" و "صالون الجمال". خلال خمس سنوات من عمر هذا المكتب، لم تخلُ نشاطاتنا أنا ومعيوف من القيام بصفقات نحتال فيها تارة على البائع، وتارة أخرى على المشتري، أو على كليهما معاً. كنت أتعمد أن أضع سيارتي "الرولزرايس" أمام واجهة البناية بالقرب من مكتبي سعياً لتصيد النساء، وكان بعضهن يتعمدن الاستفسار عن وجود بيوت أو أراض للبيع؛ سعياً للتواصل معي ومع معيوف.

لقد أحسست يا سيف في تلك الفترة أنني مرغوب من جميع نساء الأرض، فكنت اتحلى بنوع من الوسامة، بالإضافة إلى عضوية في نادي المليونيرات من خلال الأموال التي نجنيها أنا ومعيوف من مكتبنا العقاري. أجواء جعلت فكرة الزواج مؤجلة لدي، خصوصاً أن معيوفاً كان يعارض الفكرة تماماً، وكان يقول إنه لن يتزوج إلا بعد أن يتخطى منتصف الثلاثينات.

عاد النادل من جديد ليصب لسيف شاياً مغربياً، يرتفع صوت انسكاب الشاي كلما ارتفع إبريق الشاي ليترك معه رغوة في أعلى الكأس. يعود سيف لقراءة الرسالة بعد رشفة من الشاي..

- ذات يوم وعلى غير العادة، دخلت علينا يا سيف فتاة لمحتُ فيها حضوراً يختلف عن غيرها، فتاة بالرغم من أنها غطت شعرها، إلا أن جمال وجهها وإشراقته، كان يصعب أن يصفه ألف بيت وبيت من الشعر. وَقَفَت عند السكرتارية تستفسر وأنا أتمعن في جمالها. لا أبالغ لو قلت لك إنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي، ذلك الوجه الذي يجمع بين براءة الطفولة، وملامح أنوثة طاغية. أنف كأنه السيف عيون المها واسمها "المها". خرجت من مكتبي باتجاهها. تجاهلت وجودي، واستمرت في حديثها مع السكرتاريا، مستفسرةً عما إذا كان لدينا أي أرض للبيع في منطقة "الوصل" في دبي. نظرت إليَّ السكرتيرة، فجاءت الفرصة لكي أكسب حديثاً مع المها، قلت:

- مساء الخير تفضلي إلى داخل المكتب.

- لا لا شكراً.

قالت عبارتها دون أن تنظر إليّ، بل كانت تنظر باتجاه السكرتيرة التي قالت لي إنها تستفسر عما إذا كان لدينا أرض معروضة للبيع في منطقة الوصل.

- لدينا قطعتا أرض على شارع جميرا، لكن لا توجد حالياً أراض للبيع في منطقة الوصل. بإمكانك ترك رقمك، وسوف نتواصل معك.

- لا داعي لذلك، لعلي أعود لاحقاً للاستفسار من السكرتارية. شكراً

غادرت المكتب، وعيوني تراقبها وهي في طريقها إلى مصاعد البناية الكهربائية. رفعت هاتفي مباشرة لأتصل بمعيوف وإذا به يدخل المكتب، ألقيت بالهاتف على المكتب واتجهت له ماسكاً كتفيه:

- معيوف اتصل بجيهان بسرعة الآن واسألها هل دخلت فتاة للتو صالونها ؟

لقد أصبحت جيهان مديرة صالون الأميرة صديقة معيوف المقربة. كنا عن طريقها نتقصى أخبار من يتردد عليها، ودائماً ما كانت تتحدث عني على أنني غني جداً، وأن الجميع يطلب ودي.

نعم كان هو جواب جيهان على استفساري. عدت إلى كرسي مكتبي واضعاً يدي الاثنتين على رأسي أنظر إلى السقف وأنا أصف لمعيوف جمال تلك الفتاة. اقترب معيوف مني قائلاً:

- ولا يهمك يا حمدان ستصلك جميع المعلومات الليلة من جيهان. يبدو أنك قيس سيُجن بليلاه.

حضرت جيهان إلى الفيلا مساء ذات اليوم، جلسنا في الصالة المطلة على حوض سباحة والذي شهد العديد من الحفلات والسهرات. انطلقت بوابل من الأسئلة لأحصل على التالي: "المها" رئيسة قسم التدريب في إحدى المؤسسات الحكومية، متزوجة منذ ست سنوات ولديها ثلاثة أطفال. صالون الأميرة هو صالونها المفضل وتتردد عليه باستمرار. تخطط لأن تفتح محلاً للفساتين المغربية، وطلبت من جيهان أن تساعدها لجلب تلك الفساتين من المغرب. جيهان تخطط لأن تكون شريكة للمها وتجني كثيراً من الأرباح أولاً عن طريق جلب تلك الفساتين بأسعار أعلى وأخذ فارق السعر، وثانياً أن تجني أرباحاً من مبيعات تلك الفساتين من المحل. المها ليست كبقية البنات اللاتي كُن يحاولن معرفة المزيد عن ذلك الشاب الذي لديه المكتب العقاري وتلك السيارة الفارهة، والتي تسهل لجيهان أن تقربهن مني.

توجهت إلى البار، وسكبت كأساً من الخمر لي ولجيهان، بينما كان معيوف منشغلاً بهاتفه واقفاً أمام حوض السباحة، مددت يدي لأعطيها الكأس، جلست بجنبها قائلاً:

- اسمعيني يا جيهان، لقد شغلت المها بالي منذ أن وقعت عيناي عليها، أنا باختصار أريدها بأية طريقة.

هذا ما كنت أخطط له يا سيف. لقد رأيت فيها ما لم أره في غيرها. إنها متزوجة، لعلك منزعج من ذلك. وما المانع فلقد تعرفت على متزوجات من قبل بل ربما شكل ذلك دافعاً للتحدي. كلهن سواسية، هذا ما كان يردده معيوف، ويضرب الأمثلة تلو الأخرى على فلانة وعلانة، وكيف تمنعن في البداية ولكن سرعان ما استسلمن في نهاية المطاف أمام المغريات.

لعنة الله عليك وعلى فكرك العفن وعلى معيوف معك. قالها سيف ضارباً بيده بقوة على مسند الكرسي من شدة الغضب من هذا الفكر الذي وصل إليه هذان الاثنان. عاد ليستغفر ويتوب إلى الله بعد أن تذكر أن ما في هذه الرسالة ماضٍ ندم عليه صاحبه راجياً المغفرة من الله..

- مر أسبوعان يا سيف على آخر مرة رأيتُ فيها المها. كنت في كل ليلة أصرّ على جيهان أن تُغري المها بي، ولكن كان جواب جيهان على الدوام أنها لا تبدي اهتماماً كبيراً، حيث قالت لي ذات مرة:

- حمدان صدقني حاولت معها كثيراً ولكنها غير مكترثة. لم أجد معها مثل ما وجدت مع بعض الفتيات اللاتي كان يغريهن الحديث عن ثروتك وسيارتك وحفلاتك وسفراتك. أرى أن تصرف النظر عن هذا الموضوع.

لم أكن مقتنعاَ كثيراَ بكلام جيهان يا سيف، وكنت أعتقد أن المال الذي تجنيه جيهان من تجارتها مع المها، يجعلها أكثر حرصاً كي لا تخسرها. كنت واثقاً كثيراً من نفسي، وأن ثرائي سيجذب أي فتاة، والمها إحداهن. تفكير سطحي مقيت ذلك الذي جال في خاطري حينها، كيف لا ومعيوف ينخر في عقلي نخراً، ولكن في نهاية المطاف، أنا مخيراً ولست مسيراً.

في مساء اليوم التالي، جاءت المها إلى المكتب. رأيتها واقفة عند السكرتاريا، كنت قد تركت تفاصيل قطعة الأرض التي عرضت على مكتبي العقاري لي شخصياً لكي أرى المها وأتحدث معها. دخلت السكرتيرة إلى مكتبي الزجاجي اقتربت مني وهي تنظر إلى المها وعيوني تتبعها:

- الاستاذة المها تسأل عن تفاصيل الأرض التي تقع في منطقة الوصل.

قمت من مكتبي متوجهاً لعيون المها، التي ظلت متجهةً بناظرها تجاه كرسي السكرتارية:

- هلا المها، ما شاء الله اسمك جميل.

لم أتلق أية ردة فعل منها، فهل ما تقوله جيهان صحيحاً. أضع ردة الفعل تلك في كفة، وغروري بنفسي يا سيف في كفة أخرى؛ لأصل في النهاية لإيحاء أن ما تقوم به مجرد تمنُع، ولكني سأفوز بها في النهاية. توجهت لها بالحديث بالرغم من أنها تجنبت النظر إليّ:

- هناك أرض في منطقة الوصل خلف جمعية الاتحاد عرضها صاحبها علينا قبل يومين. متى يناسبك الوقت لكي آخذك لترينها؟

- سيأتي زوجي الأسبوع القادم وسيراها بنفسه.

- ولكن الأرض مرغوبة من الكثير، ولعلك لن تجديها إذا انتظرتِ كل هذه المدة.

لم تلتفت إليَّ أبداً يا سيف، نظرت المها مرة أخرى إلى السكرتيرة قائلةً:

- الأسبوع القادم سأمر عليكم مع زوجي.

يضم سيف ذراعيه إلى صدره يتبعه زفير قوي محدثاً نفسه:

- يا حمدان كل ذلك، ولازلت ترى أنه مجرد تمنع، ألا تكفيك كل الفتيات التي أشبعن غرورك لتضع اهتمامك في المها، وتدمر أسرتها؟

يعود سيف من جديد إلى رسالة حمدان..

- هل ما قامت به المها جعلني أتردد في رغبتي بها. آآآآه يا سيف إنها كغيرها تتمنع. هذا حديث نفسي لي، فالنفس الأمارة بالسوء تجتاحني، ولا وجود لضميرٍ ينصرني.

خرجت المها متجهة إلى الصالون، وكنت أقول لنفسي سأصل إليها بأية طريقة. بعدها بربع ساعة جاء معيوف بصحبة صديقين لنا، كنت معهم جسداً وكان فكري شارداً مع المها. مرت قرابة ساعة وكنت أتوقع في أية لحظة نزول المها من الصالون. طلبت من أصدقائي أن نقف خارج المكتب بالقرب من سيارتي لكي تراني وهي خارجة من الصالون. ما هذه السطحية في التفكير. هل هذا ما تقوله في نفسك يا سيف؟. لعلها سطحية في الفكر، ولكن ذلك ما حدث لكثيرات، فلماذا لا يحدث مع المها؟.

سبع دقائق مرت على وقوفنا في الخارج، وقعت عيني على ساعتي ذات العقارب الرقمية، رقم مميز في تلك اللحظة كانت الساعة تشير إلى **20:2:20** مساءً، رفعت عيني وإذا بالمها تغادر البناية. المها في مشيتها كالمهر يا سيف. وبلا وعي قلت بصوت سمعه أصدقائي:

- المها وأنتِ المهر، يا عيني على المهر وسنين المهر.

نظر إليّ معيوف الذي قطع حديثه مع صديقينا، ثم أشاح بنظره تجاه البناية حيث كانت المها ضحك قائلاً:

- مجنون ليلى متيم بليلى. كلٌ يغني على ليلاه.

التفت الجميع باتجاه البناية، كنت أتمنى في تلك اللحظة أن تغمض جميع عيون البشر إلا عيني لكي أراها دون غيري فرددت أغنية محمد عبده "يا عيون الكون غضي بالنظر اتركينا اثنين، عين تحكي العين".

سيف بدوره وبلا وعي قال بصوت عالٍ: يا ليت عيناك قد اعتمت عن المها في ذلك اليوم، وتركت لها حياتها ولم تهدمها. يعود الى الرسالة البريدية ليكتشف ماذا حدث لاحقاً..

- أمام سيارتي بسيارتين كانت المها قد أوقفت سيارتها. تقدمت يا سيف باتجاهها، وأصدقائي يراقبون الموقف..

- هلا المها بالنسبة لـ...

لم أكمل جملتي حتى مرت بالقرب مني قارورة ماء ألقتها المها من يدها قائلةً بنبرة حادة:

- وبعدين معاك، يا أخي احترم نفسك..

مضت غاضبة في طريقها والشماتة بادية على أصدقائي. أسند معيوف ظهره إلى سيارتي ماسكاً بطنه من فرط الضحك. اثنان من موظفيّ رأيتهما يهرولان إلى داخل المكتب خوفاً من إحراجي. معيوف يستمر في ضحكته الهستيرية مشعلاً نار الحقد والكره والانتقام.

ركبت المها سيارتها، وسهام جمرات الغضب تنطلق من عينيَّ تجاهها. ركبت سيارتي وبرفقتي معيوف الذي لاحظ أنني وصلت إلى درجة كان بالإمكان أن أنفجر في وجهه فآثر السكوت. عندما وصلت إلى الفيلا، توجهت مباشرةً الى البار، تناولت زجاجة من الخمر، وشربت نصفها دفعةً واحدةً، بينما انسكب ما تبقى منها على الأرض بعد أن كسرتها. تناولت أخرى والتفت إلى معيوف قائلاً بصوت مزمجر:

- معيووووووف اتصل بجيهاااااان، أريدها أن تأتي حالاً، هياااااا.

لم أنتظر معيوف لكي يخطط لي خطيئتي الثالثة، بل كان الطريق من المكتب إلى الفيلا مع تلك السهام المتوقدة جمراً، كفيلة بأن ترسم الخطوط العريضة لهذه الخطة. ساعة مرت، ولم أنطق بكلمة، سوى أنني كنت احتسي الخمر، وأجز على شفتي. مع القطرة الأخيرة للخمر رميت الزجاجة لأكسرها مثل سابقتها صارخاً:

- أين جيهان يا معيوف؟ اتصل بها.

- اهدأ اهدأ يا حمدان، ها هي سيارة جيهان قد وصلت.

دخلت جيهان وهي تخلع عباءتها، اتجهت إلى طاولة الخمر لتسكب كأسين من الخمر لها ولي بينما كان معيوف مشغولاً مع العامل بجمع شظايا زجاجتي الخمر التي تناثرت في أرجاء المكان. ناولتني جيهان كأس الخمر، وجلست بالقرب مني. أخذت الكأس ووضعته على الطاولة ثم أشعلت سيجارتي الكوبية، نفثت الدخان قائلاً لجيهان وأنا أنظر إلى الدخان:

- ثلاثون ألف درهم يا جيهان، ثلاثون ألفاً.

- ها!!، لم أفهم قصدك يا حمدان

- أخبرك معيوف بما حدث اليوم. ثلاثون ألف درهم وتنفذين ما سأقوله لك. ما قامت به المها يجب أن تدفع ثمنه.

تلك النظرة الجميلة والرغبة في المها، لم يبق منها سوى الانتقام. ظلت جيهان خلال شهرين من ذلك الموقف تتلكأ، معللةً ذلك بأنها تنتظر الفرصة المناسبة. شهران ولا زالت النار متوقدة في صدري، كنت أدرك أن تلك الخطة ستعني نهاية للعلاقة بين جيهان والمها

وبالتالي؛ ستخسر جيهان تلك الشراكة والتجارة والأموال التي تتدفق عليها. وهو ما جعلني أفكر في خطط بديلة، في ظل توقع فشل جيهان في مهمتها سواء عن عمد أو دون عمد. ولكن اتضح أنه لا حاجة لذلك..

ففي ليلة مساء، جاءت جيهان وهي في حالة غضب شديد، جلست بالقرب مني ممسكة بيد:

- حمدان هذا الخميس أو الذي بعده سوف أنفذ ما تريد أن تفعله بالمها.

ما إن شعرت جيهان أن الربح الذي تجنيه من المها على وشك أن تخسره، حتى استذكرت الثلاثين ألف درهمٍ. في تلك الليلة اتصلت المها بجيهان وهي غاضبة بعد أن اكتشفت أنها تبيع لها الفساتين المغربية بضعف السعر، بالرغم من أنها شريكة لها في المحل ولها أرباح من المبيعات. في تلك اللحظة، قررت المها أن تنهي تلك الشراكة التي كانت مجرد اتفاق شفهي. تمالكت جيهان أعصابها، وحاولت أن تبرر ما حدث، وتقدم اعتذارها، مذكرة أن ما يجمعهما أكثر من مجرد تجارة.

الانتقام قد حان أوانه يا سيف بعد أن أصبحت الظروف مهيأة لتعاون جيهان. بعدها بثلاثة أسابيع أُنجزت الخطة التي رسمتها بنفسي، وجاء معيوف هذه المرة مساعداً لي فيها وليس العكس. لم تعد المها تأتي إلى صالون الأميرة بعد أن تمّ إغلاقه بشهر، وترحيل جيهان نتيجة القبض عليها في قضية مخلة بالآداب. كنت أتوقع أن خطتي لم تؤتِ ثمارها، ولكن وبعد ستة أشهر من تنفيذ الخطة، المها مطلقة من زوجها.

ما هي تلك الخطة؟ وكيف هي حبكتها لتصل بالنتيجة إلى تفريق عائلة وتشتيتها؟. تفاصيلها ستصلك لاحقاً. أما الآن فخطيئتي الرابعة والأخيرة في انتظار موافقتك لاستقبال تفاصيلها، فهل ما زلت معي يا سيف؟.

"انتهت الرسالة"

أغلق كمبيوتره، تذكر تلك المرأة التي مضت مع أطفالها بعد دقائق من جلوسها. تذكر ذلك السؤال الذي طرحه ابنها عليها بقول:

- أمي أين أبي، لماذا لا يكون معنا؟

تجيبه أخته قائلةً:

- خلاص يا سالم أبي لا يريدنا...

يناجي سيف نفسه:

- يا ترى هل هناك حمدان آخر جنى على هذه المرأة، وشتت شمل أسرتها؟

"أسباب تتعدد، ولوم يلقيه هذا، ويرده عليه الآخر. يتمسك هذا برأيه، ويناكفه الآخر بكبريائه، والنتيجة أسر تتفكك، وأبناءٌ وسط ذلك تائهون"

(12)

انطلق سيف إلى إمارة دبي، تأخذه رحلة العودة إلى حنين الذكريات ليتذكر معها ناصر وأخواته ورفيقة دربه، وما عانته منه في بداية حياتهما. يتذكر كيف كان العمل يأخذه بعيداً عن الاستمتاع مع عائلته. دموع تذرف من عينيه وهو يشاهد ثلاث بنات صغار في السيارة الأمامية يلوحن له مبتسمات. تمضي السيارة بعيداً؛ ليمضي من جديد في تذكر تلك الأيام التي أضاعها في لهو ولعب بدلاً من أن يهبها لأسرته. غيّب الموت أسرته، وها هو يحاول أن يُعوض ما فاته وفي الوقت ذاته يقول:

- ما هي نقطة تحولك يا حمدان ومن الذي بث في ضميرك الحياة من جديد؟. كم خطيئة أخرى ارتكبتها؟. هل بالفعل الخطيئة الرابعة هي الأخيرة؟

في مساء ذلك اليوم كان سيف جالساً في فندق القصر في منطقة الـDown Town"" حيث الجلسة الخارجية أمام حوض السباحة. اختار طاولة بالقرب من البحيرة الاصطناعية في انتظار الدكتور حمدان. تنطلق أغنية Whitney Houston "I will always love you" تتراقص معها نافورة دبي مول الراقصة وسط ألوان الليزر التي تغطي واجهة "برج خليفة". يسحب الدخان من النرجيلة التي تركها منذ وفاة أسرته. يسحب الدخان ثم يعيد إطلاقه من جديد ينظر إلى ذلك الدخان وهو يتبعثر في الهواء.

مع انتهاء الأغنية وسكون الماء مع توقف النافورة عن الرقص وصل الدكتور حمدان.

- سيف، لا أصدق ما أراه، رجعت إلى النرجيلة؟.

- ها، سامحك الله يا عبده يبدو أنها العادة. أنت من يجب أن يفسر الوضع يا دكتورنا النفسي.

يضحك الدكتور حمدان، وينظر إلى عبده الشاب المصري الذي يتكفل دائماً بإعداد النرجيلة لهما:

- الله يسامحك يا عبده، أقلع سيف عن النرجيلة لمدة ثلاثة أشهر وها أنت تعيده إليها.

- معقولة!! حقك علي يا عم سيف. ولكن يا دكتور هل من يقلع عن النرجيلة كل هذه المدة، يستطيع أن يسحب نفساً كهذا؟ لقد كان على وشك أن يشكل سُحباً ركامية بذلك الدخان.

صوت سعال قوي يصدر من سيف، وضحكات الدكتور حمدان..

- حسبي الله عليك يا عبده ستذبحه، اتق الله..

انصرف عبده إلى بقية الزبائن وهو ضاحكاً، وفي يده اليسرى قبضة وعاءٍ مليءٍ بجمر النار المتوهج يمر على بقية الطاولات. يقدم النادل قائمة الطعام والمشروبات. ومن دون أن ينظرا إلى القائمة دوّن النادل الطلب المفضل لديهما. طبقين من صاج الحلوم وطبقين من صاج اللحم المفروم. ينصرف النادل ليلتفت الدكتور حمدان إلى صديقه:

- أخبرني يا سيف أين وصلت مع حمدان؟ وهل اكتشفت أشياء جديدة؟.

- من القتل، إلى الحشيش، إلى زج شخصية بريئة في السجن، إلى تفريق عائلة والافتراء على إنسانةٍ فقط لأنها رفضته. تبقت الخطيئة الرابعة. ولا أدري يا دكتور حمدان هل هذه الشخصية التي مات ضميرها قد اكتفت بأربع خطايا في حياتها أم إن هناك من الخطايا الكثيرة الأخرى؟.

- لا تشغل بالك بهذه الامور، لعله قام بهذه الخطايا فقط، وربما له خطايا أخرى كفر عنها قبل موته. المهم في الأمر أن تركز على الهدف الرئيس من قبولك المضي مع حمدان وهو مساعدته، لا أن تغوص في خطاياه. من يدري، لعلنا قمنا بخطايا كثيرة في حياتنا، نراها صغيرة ولا نلقي لها بالاً، لعل لحظةً تمر في حياتنا كما هو الحال بالنسبة لحمدان جعله يراجع حساباته، ويحاول استدراك الوقت ومعالجتها. أدركه الموت، وبقيت الخطايا، وها قد جاء دورك لمساعدته.

- ليتني أعلم ما هي نقطة التحول التي أثرت على حمدان وجعلته يعيد حساباته.

- ها أنت من جديد يا سيف تبتعد عن الهدف الرئيس. و يا أخي لا تنس أنه قال لك إنه سيبوح بذلك لك لاحقاً. أكمل الطريق واسأل الله أن يكون أجر ما تقوم به في ميزان حسنات عائلتك، ولا تنس كيف أثر عليك إيجاباً، باستثناء السحب الركامية من دخان النرجيلة.

بعد تناول العشاء، خرج سيف والدكتور حمدان للتجول مشياً على الأقدام في شارع الشيخ محمد بن راشد بوليفارد، حيث المقاهي والمطاعم، يصادف في ذلك المساء معرضاً للسيارات الكلاسيكية المعروضة على طول ذلك الشارع الذي يتزين بألوان وأشجار جميلة. لا تزال الحيرة من كيفية مساعدة حمدان تراود سيف، ينظر إلى الدكتور حمدان قائلاً:

- دكتور، الصراحة إن مسألة مساعدة حمدان تأخذ حيزاً كبيراً من تفكيري. صحيح أنني كنت متحمساً في البداية لمساعدته، ولكن وبعد هول الخطايا التي ارتكبها، أسأل نفسي كيف يمكنني مساعدته.

- أتفق معك. بالفعل الخطايا كبيرة، وتجعل الشخص يتساءل، كيف يمكنه تعويض من وقع عليه جُرم حمدان ورد مظالمه؟. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ودعنا نرى لعل حمدان يسهل الأمر عليك. في هذه الفترة أتمنى أن تقبل اقتراحي بأن تقيم في فيلتي في جزيرة النخلة. لا داعي لعودتك إلى بيتك، ويا أخي هي فرصة ألتقي بك كل ليلة خصوصاً وأن زوجتي وأبنائي، ذهبوا مع أخوالهم في رحلة عمرة لمدة أسبوعين.

وافق سيف على مقترح الدكتور حمدان، فمنزله لا زال يحمل الكثير من الذكريات الجميلة ولكنها تحولت إلى غصةٍ في القلب وحسرةٍ مع رحيل من فيها. اتصل بسائق المكتب كي يمر إلى منزله ليحضر ملابسه التي أوصى بها صفوان بتجهيزها.

وصل إلى فيلا الدكتور حمدان والتي كانت تقع في السعفة القريبة من فندق "أتلانتس". بالرغم من التعب في الانتقال من منطقة "الهير" في مدينة العين ثم إلى العاصمة "أبوظبي" والعودة من جديد إلى "دبي" دار الحي كما يحلو للجميع تسميتها، لم يستطع انتظار الغد حتى يكتشف الخطيئة الرابعة. جلس في الشرفة المطلة على البحر، وفي هدوء يكسره مدٌ وجزرٌ هادئ، وقمرٌ قارب أن يكتمل تغازله نجوم متناثرة في السماء، تصل الرسالة من البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com بعنوان:

"وداعاً لراحة بال عبيد بن حارب"

- ها قد وصلنا إلى الخطيئة الرابعة والأخيرة يا سيف. هل هي الخطيئة الأخيرة التي ارتكبتها في حياتي؟. أتمنى أن لا تشغل بالك في ذلك. لم تكن خطيئتي الأخيرة كسابقتها، فلم أفرق بين زوجين، ولكنني بالتأكيد بخطيئتي هذه جعلت من "عبيد بن حارب" يتراجع وعائلته سنوات الى الوراء. في أواخر التسعينيات، وتحديداً في عام 1997م، كنت قد قطعت شوطاً كبيراً في جني الكثير من سوق الأسهم. فتفرغي في تلك الفترة، وعلاقاتي مع مكاتب الوساطة؛ ضاعف من أرباحي حتى بِتُّ في أعين أقربائي خبيراً في الأسهم، والطريق المختصر لجني الأرباح. كثير من أقاربي ممن هم على غير اطلاع، وجدوني بوابتهم لعالم الأسهم. عندها فتحت محفظةً، وقمت بصفقات كبرى. لم أكن منصفاً معهم كثيراً في توزيع الأرباح. ألم تكن هذه خطيئة من ضمن الخطايا؟

ذات يوم اتصل "خليفة" ابن عمي الذي كان متحفظاً كثيراً من الدخول في سوق الأسهم، اتصل طالباً مني إقناع عبيد بعدم الدخول في عالم الأسهم في حال فتح الموضوع معي. كان خليفة صديقاً لابن عم عبيد، وقد سمع منه أن عبيداً اختار أن يجعل مني بوابته لدخول الأسهم. عبيد الذي التقيته في بعض المرات ويبدو عليه معالم الحياة البسيطة كان

موظفاً بسيطاً في هيئة كهرباء ومياه دبي، وكان راتبه بالكاد يكفيه ويكفي عائلته، فكيف له أن يستثمر في الأسهم.

اتصل بي طالباً مقابلتي فأجبته بالقبول، وماهي إلا ساعة حتى وصل مكتبي. تناول القهوة على عجل، وكأنه يسابق الريح لاغتنام فرصة ربما لن تتكرر. وضع الفنجان على الطاولة، تقدم بظهره واضعاً ذراعيه على رجليه.

- حمدان لعلك تعلم أنني انسان على الله ثم على هذا الراتب. لا أخفيك سراً إنني أفكر بمستقبل أبنائي وتوفير حياة كريمة لهم. لست خبيراً في التجارة ولا أفهمها. أرى الجميع الآن يتحدث عن الأسهم، وعن الأرباح الخيالية، والسريعة التي يجنونها. وعلمت من الجميع بأنك الخبير في سوق الأسهم، وبالتالي لن أجد أفضل منك في الدخول في سوق الأسهم.

شرحت له في البداية أن المحفظة التي لدي فيها العديد من المساهمين، وأن المبلغ الذي بحوزته قليل حيث كان لا يتعدى مئة ألف درهم، وبالتالي لن يحقق له ما يريد. وبدلاً من أن أنهي الحديث، وأصرف نظره عن الدخول في سوق الأسهم، إذا بفكرة تخطر في بالي، إذا وافق عليها عبيد فهذا يعني الحصول على مبلغ من المال لا يُستهان به. عرضت عليه الفكرة، واجتهدت في إقناعه بها. سألني ما إذا كنت واثقاً منها وأنها لن تعود سوى بالنفع له. أكدت له ذلك خصوصاً وأن المبلغ الكبير الذي يمكن أن يحصل عليه من السهولة مضاعفته في سوق الأسهم في مدة قصيرة ويمكنه الانسحاب في أي وقت.

نظر سيف إلى ظلمة البحر، وأنوار الفنادق والأبنية المنتشرة من بعيد في منطقة المارينا في دبي و أخذ يحدث نفسه:

- طالما أنها خطيئتك الرابعة، فلعلي أجزم يا حمدان أنك لم تكن واثقاً مما قلته لعبيد، وعن الضمانات التي قدمتها له.

يعود إلى كمبيوتره وحديث حمدان:

- كنت أعلم بحكم خبرتي يا سيف أن أسواق الأسهم ربما تعود لحركة تصحيحية بعد أن وصلت قيمة الأسهم إلى أرقام خيالية لا تعكس قيمتها الحقيقية. هذا ما سمعته من خلال بعض النافذين في سوق الأسهم، وهو ما أوهمني بأنني أكتسب الخبرة في تحليل هذا السوق ومخرجات بياناته. هل أتراجع وأبوح لعبيد بالحقيقة؟، ما الذي يدفعني إلى ذلك وما هو السبب؟ هل لأنني نزيه؟، أم لعلني لم أرتكب خطايا من قبل، أم ربما سأكترث لما سيحدث له ولعائلته لاحقاً؟. هل ستترتب عليّ أية التزامات لو فشل الأمر؟. حصيلة ما تقدم هو أن أستغل الفرصة، فما قدمته له وعوداً وإغراءات وضمانات لا تُحمِلُني أية مسؤولية.

وضع سيف يديه على جانبي الكرسي قائلاً:

- وبالطبع معيوف لن يألو جهداً في تنفيذ ذلك الإغراء..

- كان معيوف يا سيف حاضراً في ذلك الاجتماع، ولكي يُدخل الطمأنينة إلى قلب عبيد، بعث برسالة إلى أحد موظفي المكتب يطلب منه أن يدخل علينا ويدعي كذباً أن أرباحنا في هذا الأسبوع من الأسهم بلغت مليون و200 ألف درهم. تحمس عبيد وسط تلك الاغراءات والتطمينات.

وبالفعل بعد مرور شهر من ذلك اللقاء، قام عبيد بإيداع مبلغ 3 مليون درهم في حسابي، وكان الحل أمامه إما أن يقبل الثقة شفهياً دون ضمان خطي، وإما أن يبحث عن غيري. عجزه وقلة خبرته وطيبته أو لنقل سذاجته جعلته وتفكيره في مستقبل أبنائه ومبلغ المليون و200 ألف التي سمعها من الموظف تجعله متقبلاً للأمر.

كان عبيد فرحاً جداً بالعوائد الشهرية التي كنت أودعها في حسابه، والتي كانت تتراوح بين 15 و25 ألف درهم. كان ذا شخصية قانعة، فطلب مني في العديد من المرات بيع أسهمه التي ارتفع سعرها إلى 25% ومغادرة سوق الأسهم، ولكنني في المقابل كنت أقنعه دائماً بأن القادم أفضل.

بعد قرابة ثمانية شهور، كانت هناك مؤشرات لم تكن واضحة للجميع، تشير إلى أن سوق الأسهم سوف يشهد حركة تصحيحية قوية. لم أكن أكترث كثيراً للأمر؛ فالمبالغ التي تركتها في سوق الأسهم كانت استثمارات ورأس مال المحفظة التي تأسست من أموال عدد من الأقارب والأصدقاء ولم تكن بالمبالغ الكبيرة لهم، بالإضافة إلى استرجاعهم لجزء كبير من رأس المال من خلال الأرباح خلال الفترات السابقة. كما أنني كنت واضحاً معهم منذ البداية بأن هناك ربحاً وخسارة، تماماً كما شرحت لعبيد. بدأت الأسهم بالتراجع، وكنت أتلقى الاتصالات من شركاء المحفظة، ولكنني كنت أشير لهم أن الوضع تحت السيطرة. هل كنت بالفعل خبيراً بالأسهم يا سيف؟. في واقع الأمر إن حالي كحال العديد ممن دخلوا في هذه الموجة، تحركنا العلاقات والشائعات، وما نسمعه من أصدقائنا في مكاتب الوساطة.

تهاوت أسعار الأسهم بشكل كبير. عندها تركت الخيار للمساهمين، فإما بيع الأسهم التي لم تعد لها قيمة تذكر بعد أن فقدت أكثر من 95% من قيمتها الاسمية، أو تركها على حالها حتى يستعيد سوق الأسهم عافيته.

ترك سيف الكمبيوتر ليقترب من مياه البحر، يحاول أن يتخيل كيف سيكون مصير عبيد، ومن أين أتى بهذا المبلغ وما هي العواقب، هل سيكون مصيره كمصير من يُلقي بنفسه في عتمة مثل هذا البحر وهو لا يعرف من السباحة سوى اسمها... يعود إلى رسالة حمدان:

- الجانب المنطقي فيما ذكرته لك يا سيف يقول، إنني يجب أن لا أعتبر ما حدث وخاصة لعبيد خطيئة. حيث كُنت واضحاً منذ البداية بأن سوق الأسهم ربح وخسارة. هذا هو الجانب المنطقي، ولكن ما قمت به هو اللامنطقي، وهو ما يجعل ما فعلته بعبيد خطيئة لا بد من التكفير عنها. سأكشف لك تفاصيلها بعد أن ترسم على وجه عبيد فرحة غابت عنه منذ مدة طويلة.

خطايا أربع، ها قد تجلت أسرارها، وبقيت لبعضها تفاصيل أخرى، وها هي الحلول الأربعة لتصحيحها أو ترميمها قد حان وقتها. لماذا تأخرت في اتخاذ هذا القرار ولم أقدم عليه من سنوات طوال وها أنا أصبحت تحت الثرى؟. نقطة تحول كبيرة حدثت في حياتي يا سيف هي من دفعتني إلى ذلك، لعلي أشرحها لك بعد أن تمضي معي في رحلتي كي أحاول أن أكفر عن أخطائي.

"انتهت الرسالة"

"ثقة"، "طيبة"، "معاملة الناس بأصلنا لا بأصلهم"، هي في بعض الحالات، محاولة لتبرير سذاجة فكر، وتعامل في عالم أصبح الحذر فيه واجباً. حذر لطمأنينة وليس لتخوين. حذر جاء في الأمثال الشعبية بالقول

"حرص ولا تخون"

(13)

في صبيحة اليوم التالي جلس سيف مع الدكتور حمدان يتناولان إفطارهما، تبادلا الحديث حول الخطوة التالية التي يجب اتخاذها لمساعدة من ووُري الثرى. كانت الأفكار تدور حول كيفية الوصول إلى من تجرعوا الظلم من حمدان، وكيف يمكن تعويضهم وهل سيحمل ذلك تبعات لسيف. غادر الدكتور حمدان إلى عيادته بينما استعد سيف لرحلة تكفير أخطاء حمدان.

يفتح كمبيوتره، ويضغط على زر نعم لمواصلة الرحلة والانتقال إلى التكفير عن الخطايا. تصل الرسالة وعنوانها:

"محمد شاه حسين حكمت الله"

- لعل الأفكار تزاحمك يا سيف في كيفية مساعدتي. ما أتمناه منك هو عدم القلق من ذلك؛ فكما أشرت لك، كل ما وصلك من البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com هو أمر قد وضعت له جميع الحلول وقد بدأت بمعالجة بعضها، وبعضها سبقها الموت ليترك الخطيئة وحلها بيد من سيقبل مساعدتي. ما عليك القيام به هو إرادة، وقبول للانتقال إلى تنفيذ تلك الخطط التي وضعتها للتكفير عن الخطايا.

بعد أن جاءت نقطة التحول في حياتي؛ تذكرت خطيئتي الأولى، وذلك الكابوس الذي راودني حين رأيت ذلك الرجل الذي دفنته دون أن أنظر إلى وجهه وبجانبه امرأة وأربعة أطفال. تحريت، وتوصلت إلى الطريقة التي أستطيع من خلالها التكفير عن خطيئتي. تفاصيلها ستجدها في الرسالة البريدية التالية، والتي ستكون كمثيلاتها لكل خطيئة من خطاياي.

انتقل سيف مباشرة للضغط على زر مواصلة الرحلة لتصله رسالة بريدية من البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com

- في هذه الرسالة ستجد يا سيف رقم تسلسلي (باركود)، أرجو أن تقوم بطباعة هذه الرسالة، وتسليمها إلى فرع مصرف الإمارات الإسلامي في مدينة دبي الطبية مع إبراز بطاقة هويتك. في ذلك الصندوق من الورق المقوى الذي ستجده في صندوق الأمانات، تفاصيل التكفير عن الخطيئة الأولى.

دقائق مرت وإذا بسيف ينطلق بسيارته لتبدأ مع تلك الانطلاقة؛ رحلة الغفران لحمدان، علّ الله يتقبلها له. وصل الى المدينة الطبية حيث مصرف الإمارات الإسلامي، توجه مباشرة الى آلة تسليم أرقام الانتظار، وفي عجلةٍ سحب رقماً، ما لبث أن عاد ليسحب غيره، حيث كان يجب سحب رقم لخدمة العملاء، وليس للصندوق. أخذ خلال انتظار دوره يمرر ناظره على وجوه المراجعين، على الطرف الأيمن في مكان الانتظار، رجل بلغ الستين من عمره، منهمكاً في عد النقود التي قام بسحبها والقلق بادٍ عليه. يرفع رأسه فجأة ينظر يمنة ويسرة ثم يعود من جديد لحساب المبلغ. يكرر الأمر مرة وأخرى يربكه قلقه؛ ليعود لعد النقود من جديد. عند شباك (counter (التحويلات المالية يقف رجلٌ منفعل نتيجة لتأخر البنك في إرسال التحويلة المالية، ويكرر عبارته "يجب أن تصل التحويلة إلى الشخص المستفيد اليوم قبل الغد". عند هذه العبارة سرح سيف بفكره ليعود له ذلك السؤال المتجدد وهو، لماذا تأخر حمدان طوال تلك السنين؟ أين كان يومه قبل غده؟

يتجه سيف إلى مسؤول خدمة العملاء بعد مناداة الجهاز الآلي لرقم بطاقة انتظاره.

- السلام عليكم

- وعليكم السلام تفضل كيف يمكنني مساعدتك اليوم.

سلم الرسالة البريدية التي دُون عليها الباركود مع بطاقة هويته. طلب الموظف منه أن يسلم هذه الأوراق إلى الموظف المسؤول عن الصناديق والودائع. بعد أن طابق الموظف اسم سيف مع قائمة الأسماء الموجودة لديه، رافقه إلى صناديق الأمانات، التفت إليه قائلاً:

- أخ سيف عند الصندوق رقم 20-2-20 افتح هذا المظروف ثم أدخل الرقم السري، وعندها يمكنك أن تستلم ما فيه.

- هل المحتوى يخص الرسالة هذه أم إن هناك محتويات أخرى.

- لهذا الباركود محتوياته الخاصة والتي ستجدها فيه. وليس هناك محتويات أخرى.

تقدم سيف إلى ذلك الصندوق، وفتح المظروف ثم أدخل الرقم السري (19-1-6-i). فتح الصندوق، وإذا بصندوق صغير من ورق مقوى. انطلق إلى سيارته وهو يسابق الخطى بفكر منشغل عما في داخل ذلك الصندوق. فتحه وإذا به يحوي على أظرف ثلاثة رقمت بأعداد متتالية. فتح المظروف الأول وإذا بها رسالة من حمدان يقول فيها:

- بعد أن تجلت نقطة التحول في حياتي، فإن أول ما قمت به هو قطع علاقتي تماماً بمعيوف فلم أعد قادراً على الاستمرار في تلك الحياة البائسة والازدواجية التي أعيشها، والتي كان معيوف جزءاً منها، بل ويشكل لي الماضي بكل ما فيه من مساوئ. توجهت إلى

المكان الذي فارق فيه ذلك الرجل الحياة حين صدمته بسيارتي. لم تكن هناك اختلافات كثيرة سوى أن ذلك الشارع الذي انطلقت فيه بسرعتي، لم يعد صالحاً لتلك السرعة نتيجة تآكل الإسفلت وتكوُنت حفر صغيرة فيه. ذلك الإسفلت الذي تشرب من دم من دفنته وغيبتُ مصيره. مررت على عدد من المزارع أسأل المزارعين عن المحاصيل وهل هناك مزارع للبيع. أشار لي أحدهم أن هناك رجلاً باكستانياً من أقدم المزارعين هنا، وعلى اطلاع بالوضع، و بإمكانه مساعدتي. قلت في نفسي هل يا ترى كان هذا الرجل حاضراً حين وقع الحادث. ترجلت من سيارتي لعلي أجد الإجابة فإذا بالمفاجأة الكبرى تكشف عن نفسها..

بينما كان سيف غارقاً في قراءة الرسالة، إذا بمسؤول المواقف يطرق عليه نافذة سيارته:

- السلام عليكم

- وعليكم السلام ورحمة الله

- تذكرة الموقف انتهت مدتها إما تجديدها، أو أن تتحرك أو سأضطر أسفاً لتحرير مخالفة لك مع الاعتذار.

انطلق سيف بسيارته بعد أن شكر ذلك الرجل على دماثة الخلق، وأسلوبه الراقي في التعامل. انطلق متلهفاً لمعرفة تلك المفاجأة الكبرى. توقف في "وافي مول" واتجه إلى مطعم وكوفي شوب "وافي جورميه" ومعه الصندوق. طلب القهوة التركية، وغاص من جديد في رسالة حمدان:

- سلمت على ذلك الرجل وسألته في البداية عن المحاصيل التي تزرع، وما هي إمكانية الاستثمار في هذه المزرعة. دعاني لتناول الشاي. لم أتردد في قبول الدعوة يا سف لعل ذلك يساعدني في أن أحصل على ما أريد، ولكن المشكلة كانت في كيفية فتح الموضوع معه. جلسنا تحت شجرة المانغو بالقرب من حوض المزرعة الذي ينسكب فيه الماء بغزارة من أنبوب متصل بالبئر. جاء الشاي وجاءت معه المفاجأة الكبرى..

ارتشف سيف رشفتين من القهوة التركية ليعود إلى قراءة رسالة حمدان والمفاجأة الكبرى:

- جاء شاب يبلغ من العمر 26 عاماً بالشاي ثم مضى إلى شأنه في نقل الحشيش إلى حظيرة الماشية. قدم لي الرجل المسن كأساً كاد أن يقع من وقع ما قاله، وهو ينظر إلى ذلك الشاب وهو مُدبر:

- "رحم الله والدك الذي لا نعلم ما هو مصيره".

تسارعت دقات قلبي، صوت ارتطام ذاك الشخص على الزجاج الأمامي لسيارتي صمّ أذني، تلك الخطوط المتعرجة من الدماء التي كانت ترتسم على زجاج السيارة الأمامي المتهشم وقت الحادث أراها أمامي، أقول لنفسي أيعقل ما يدور في مخيلتي الآن أن..؟

قاطع ذلك الرجل المسن سرحان فكري قائلاً:

- قبل أكثر من 24 سنة وقعت حادثة في هذا الطريق. كان بعضنا غارقاً في نومه استعداداً ليوم جديد، بينما كان بعضنا يتسامر مع بقية العمال، والبعض الآخر كان ينتقل من مزرعة إلى أخرى؛ لتناول العشاء مع أقاربه والتسامر معهم. كنت أنا واثنان من العمال نتسامر مع عامل آخر رشحته شخصياً لصاحب مزرعة بالقرب منا للعمل فيها. بعد أن غادرنا بفترة سمعنا صوت ارتطام وفرامل قوية..

وقع كوب شاي حمدان من الطاولة، بعد أن غاصت رجله في التراب مستمرة في حركتها حتى ضربت رجل الطاولة مسترجعاً بالذاكرة ذلك المشهد في محاولته وقف تحرك السيارة. صوت ارتطام مماثل على رجل الطاولة الأمامية لسيف متذكراً بدوره ذلك المشهد وما حدث حين ارتطمت رجله بوعاء الماء ليتطاير معه الماء والفناجين وقت قراءة رسالة حمدان في العزبة..

يعود سيف ليكمل الرسالة:

- بعد أن اعتذرت للرجل المسن لأنني أوقعت كوب الشاي أكمل قائلاً:

- هرعنا إلى الخارج لنرى سيارة من بعيد متوقفة في منتصف الطريق. هذه الطريق تبعد عنا قرابة كيلومتر ونصف. كان الظلام دامساً، وبعدها بفترة انطلقت السيارة مسرعة. أخذتٍ دراجتي الهوائية، واتجهت مع عدد من عمال المزرعة إلى مكان توقف السيارة، التي خلفت رائحة كريهة من آثار احتكاك الفرامل بالإسفلت. وجدنا آثار دماء، ولكن لم تكن هناك جثة. توجهت مباشرة إلى مزرعة ذلك العامل الذي غادرنا ولكنني لم أجده. عدت إلى مكان الحادث، وإذا بجميع عمال المزارع التي حولنا قد تجمعوا باستثناء ذلك العامل الذي غادرنا. أخذنا ننادي عليه باسمه عله يكون في الجوار ولكن دون جدوى..

قمت من مكاني من هول ما أسمع، معللاً وقوفي وإعطائي لذلك الرجل ظهري، بسبب السُعال التي هاجمني فجأة، ولكن في واقع الحال كنت أبكي بداخلي بحرقة كبيرة. آآآه كم أنا حقير ووضيع. رجعت إلى الجلوس، لم أستطع أن أنظر إلى وجه ذلك الرجل المُسن. أكمل قائلاً:

- بحثنا عنه طويلاً دون فائدة تذكر. منذ ذلك الوقت وحتى الآن لازلت أشعر بالذنب لأنني أنا من أحضرته للعمل هنا. العوز، وقلة الحاجة، وعدم وجود معيل لأسرة الفقيد جعلني

أمتثل لرغبة أرملته. من أحضر لك الشاي؟ في الحقيقة هو ابن ذلك الشخص الذي اختفى وترك الحزن مستوطناً في قلوبنا.

مع انتهاء جملته كنت قد أكملت خطوات عدة مبتعداً عنه باتجاه سيارتي. كان الفتى في طريقه إلينا ليقدم لي شاياً بدلاً من الذي سكبته. لم أستطع أن أنظر إلى وجهه. ركبت سيارتي، وانطلقت وعيناي غارقةً في دموع الندم.

وضع سيف رأسه على ذراعيه اللتين وضعهما على الطاولة متخيلاً ذلك الموقف. عاد من جديد إلى الرسالة:

- بعد أن سهلت هذه الصدفة والمفاجأة الكبرى الأمر للتكفير عن خطيئتي والتخفيف على عائلة قتيلي؛ قررت أن أعوّض هذه العائلة التي جاء عددها كما هو في ذلك الحلم. الخطيئة يُكفر عنها الله بالتوبة هذا ما أرجوه من الله عز وجل، ولكن وجب تعويض من تبقى على قيد الحياة وكشف ما ظل دفين الأسرار لسنوات. في المظروف الثاني والثالث تفاصيل التعويض أتمنى أن تساعدني في تنفيذها.

فتح سيف المظروف الثاني مباشرةً تبعه بالمظروف الثالث. كانت مهمة ما جاء في المظروف الثالث سهلة فقرر القيام بها أولاً. وبعدما وضع إحداثيات الموقع؛ انطلق لتلك الوجهة، وما هي إلا ساعة وربع الساعة حتى وجد نفسه أمام المزرعة رقم 20-2-20. كان الرجل المُسن واقفاً أمام العمال يوجّههم. انصرف العمال فأخذ يجوب المزرعة متكئاً على عصاه، في حين كان سيف يشاهده ويتذكر مراداً عامل مزرعة أخيه. ما إن شاهد الرجل المُسن سيفاً حتى توجه نحوه. دار الحديث بينهما وخلال الحديث التفت سيف إلى الشاب الذي بلغ من العمر 26 عاماً بعد أن أشار الرجل المسن إليه بعصاه. استدعاه الشيخ المسن وبعد حديث قصير سلم سيف المظروف لهذا الشاب ثم انصرف.

لقد قرر حمدان أن يُعوض عائلة القتيل بمبلغ مالي كبير تعويضاً عن السنين التي مضت. بقي على سيف أن ينفذ مهمة المظروف الثاني التي تحتاج إلى خطة مُحكمة ليبعد عنه الشبهات. فما كان منه سوى أن قام بطباعة رسالة ووضعها بقرب مركز من مراكز شرطة دبي. خلال أسبوع وبينما كان يقلب في "صحيفة البيان الإماراتية" حتى وقعت عينه على خبر مفاده، "*اكتشاف جريمة قتل دُفن فيها القتيل في منطقة صحراوية بالقرب من الخوانيج، وفي انتظار فحوصات* الحمض النووي DNA *لمعرفة مزيد من التفاصيل*". جاءت النتائج لتبين أن الوفاة كانت نتيجة نزيف حاد في المخ وتهشم الجمجمة. بعد فترة وجيزة كان الرجل المُسن وذلك الشاب مع رفات القتيل في الطائرة متجهين إلى باكستان لدفنها بجوار قبر والديه. كان ذلك "محمد شاه زين حكمت الله" الذي قُتل وهو في الثانية والعشرين من عمره. أب لأربعة أطفال أصبح كبيرهم في السادسة والعشرين من عمره، إنه "حكمت محمد شاه زين حكمت الله".

"تتقادم السنون علنا عن الحُزنِ نسلى، ثم ننسى. تمُرُ السنون
وإذا في غياهب الحزن والكمد نُنسى"

(14)

في صبيحة اليوم التالي، اتصل الدكتور حمدان بسيف يدعوه لتناول الإفطار في فندق فيرساتشي بالقرب من فيستيفال سيتي. وصل إلى بهو الفندق، وكان الدكتور حمدان قد أنهى للتو لقاءه مع أحد الاستشاريين الزائرين. تقدم إلى سيف وهو فرح قائلاً:

- صباح الخير صديقي جئت، وجاء السعد معك، اتفقت مع الدكتور "سميث كلارين" على توقيع اتفاقية تبادل للخبرات ودراسة الحالات بين عيادته في لندن وعيادتي. وأخيراً سأعوض الخسائر التي كنت أتكبدها في كل مرة تزورني فيها في العيادة.

انطلقت الضحكات بينهما ويدهما بيد بعض باتجاه مطعم "جيردينو" بالقرب من حوض السباحة لتناول الإفطار. عاد الدكتور حمدان وسيف إلى بهو الفندق الذي طرز بالعلامة التجارية لفيرساتشي في كل أركانه وأرجائه. فتجدها في الرخام والجبس وحتى في الأطباق والفناجين.

الشاي المغربي ينسكب من الأعلى على فنجان سيف، والدكتور حمدان يمازحه قائلاً:

- سيف كفانا فرامل وركل للطاولات دعنا نرتشف الشاي بعيداً عن الأفلام الهندية.

يعتذر سيف بطريقة ودية لاثنين من الجالسين بالقرب من طاولتهم بعد أن ضحك بصوت عالٍ ينظر للدكتور حمدان وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة:

- سامحك الله يا دكتور أحرجتني أمام الناس.

- إحراج بسيط أفضل من أن تسكب الشاي عليّ يا سيف. أخبرني أين وصلت مع حمدان؟.

- ها هي نسخة البريد الأخرى بالباركود الجديد، سأذهب من جديد إلى مصرف الإمارات الإسلامي لاستلام الصندوق الجديد ورحلة جديدة للتكفير عن خطاياه. أتدري يا دكتور، الفضول يجعلني أسابق الوقت للتكفير عن خطاياه ولولا الفاصل الزمني الذي وضعه لاستلام الصندوق الذي يليه وهو أسبوع لكنت ذهبت في اليوم التالي من انتهائي من المهمة الأولى.

- بالفعل حمدان في مسيس الحاجة للثواني للتخلص من تبعات خطاياه.

عند الباب الرئيس للفندق يقف سيف والدكتور حمدان في انتظار وصول سيارتيهما، وما هي إلا دقائق حتى انطلق سيف إلى مصرف الإمارات الإسلامي. وفي طريق لا يستغرق

أكثر من عشر دقائق يستذكر سيف ما قاله حمدان في رسالته لمعالجة الخطيئة الثانية التي جاءت بعنوان:

"قريباً ستكون أيها التاج حراً طليقاً"

- هل رأيت ابن محمد شاه زين حكمت الله ابن القتيل؟. هل ارتسمت الفرحة يا سيف في وجهه حين استلم المبلغ؟، هل تمّ العثور على الجثة وفق الإحداثيات التي أعطيتك إياها؟. أتمنى ذلك.

في رحلة التعويض عن الخطيئة التالية، هذا ما كنت أردده يا سيف: كيف أعوض التاج عن سنين الظلم التي أمضاها في غياهب السجون. هل تأثرت عائلته في السودان من التهمة التي وجهت له وهل أصبح الناس يرمقون عائلته بنظرات سيئة؟. ما أثقل حملك على صدري أيها التاج المظلوم. كيف مات ضميري طوال تلك السنين ولم أكترث بعذابك ولا بعذاب أسرتك؟!. هل أُلقي اللوم على معيوف الذي ظل يذكرني بأنه سمع قصصاً كثيرة عن أولئك الذين قبعوا في السجون دون وجه حق، وبالتالي فلا ضير أن تكون أنت أيها التاج واحداً منهم، فمستقبلي أهم من العاطفة الإنسانية. لقد كان للحشيش، وزيف زينة الدنيا، دورها في رسم غمامة سوداء حجبت نور الضياء عني. كنت أشاهد الأفلام المصرية والأجنبية وأرى أولئك الذين قاموا بأبشع الجرائم بدم بارد دون أن يُحرك ساكن فيهم، وأقول أنا لست بأفضل منهم.

تبقى أمام التاج قرابة أربعة أشهر حتى يكمل المدة، ولا بد من دفع الغرامة الجنائية المنصوص عليها في الحكم كي يُطلق سراحه. الآن جاء دورك لتساعدني. كيف ذلك؟ ستجد ذلك في الصندوق التالي، ولا تنس أن تطبع الرسالة البريدية التالية، والقيام بالخطوات السابقة نفسها.

أوقف سيف سيارته بالقرب من البنك، نزل منها وإذا بالمسؤول عن المواقف يجول في ذلك المكان. نظر إليه سيف مبتسماً وهو يتذكر تلك المعاملة اللطيفة التي أبداها هذا الشخص معه. وفي حوار مقتضب تجري الصدفة ليكتشف سيف أن اسم هذا الشخص هو حمدان أيضاً. يرى الابتسامة في وجهه، ويأخذه خياله إلى الابتسامة المرتقبة لحمدان حين يتخلص من ذنوب الخطايا وهو عند ربه.

في انتظار دوره داخل قاعة الانتظار، ينظر سيف حوله وإذا بالرجل الستيني في المكان ذاته يقوم بعد المبلغ الذي بحوزته يدفعه قلقه إلى إعادة الكرة مرة أخرى. جلس بقربه شاب ألقى التحية عليه. عاد سيف بذاكرته لتنبهه بأن هذا الشاب هو ذاته الذي كان منفعلاً نتيجة تأخر البنك في تحويل المبلغ. دفعه الفضول لسؤاله:

- المعذرة منك، أتذكر أنني رأيتك قبل فترة منفعلاً بسبب تأخر البنك عن تحويل المبلغ. وشدتني عبارة "اليوم قبل الغد" هل كان الأمر يستحق كل ذلك الانفعال؟ هل تأجيل التحويل ليوم آخر يشكل لك معضلة كبيرة؟.

- في الحقيقة لدي شركة استيراد وتصدير ومعاملاتي دائماً ما تكون مع شركات خارجية. إن التأخر في التحويل يكلف شركتي غرامات يومية، وبالتالي يؤثر ذلك مباشرة على أرباحها، بالإضافة إلى ذلك فقد تعودت على عدم تأجيل الدفعات وتأخير حقوق الآخرين. نمتلك اليوم ولا ندري هل نظفر بغدنا أم لا. وكما يقول المثل الشعبي في الأسكيمو "غداً رمادٌ، أمس خشب، واليوم فقط النار تضيءُ زاهيةً" أستميحك عذراً فقد جاء دوري.

يمضي ذلك الرجل إلى شباك التحويلات المالية، ويمضي سيف بفكره مستذكراً حمدان وغدِه الذي رحل دون أن يكون حمدان فيه. عند الصندوق رقم 20-2-20 يدخل سيف الرقم السري ((19-6-9-a، هذه المرة كان الصندوق أكثر وزناً من سابقه. وقف سيف خارج البنك وبينما كان يهم بفتح الصندوق تقدم له رجل قائلاً:

- يا زول هذه بطاقتك وقعت منك.

- شكرا لك، وبارك الله فيك يا زول.

يمضي ذلك الرجل في طريقه مبتسماً، ليعود سيف إلى المظروف في سعيه ليُعيد الابتسامة إلى التاج. فتح المظروف المرقم بالرقم واحد، فوجده قد احتوى على مبلغ كبير مع رسالة مقتضبة من حمدان:

- آن الأوان ليطعم التاج مذاق الحرية التي حرمته منها.

نظر سيف إلى هاتفه الجوال وتحديداً التقويم. بحسبة بسيطة تنبه إلى أنه لم يتبقَ سوى أيام معدودة، وتنتهي مدة العقوبة المفروضة على التاج. انطلق سيف إلى "منطقة العوير" حيث الإدارة العامة للمؤسسات العقابية والإصلاحية. لم يطل مكوثه في الإدارة سوى عشرين دقيقة، بعدها خرج مسرعاً إلى سيارته ليفتح المظروف الثاني. وإذا به مبلغ مرفق معه رسالة من حمدان يقول:

- التاج لو أنفقت كنوز الدنيا فإنني لن أعوضك عن يوم من حريتك المسلوبة. قد أصبحت تحت الثرى أرجو أن تسامحني.

قلب سيف الرسالة نظر إلى أسفلها عاد إلى المظروف، علّه يجد ضالته ولكن دون جدوى، أعاد برأسه إلى مسند الرأس وبعد نفس عميق:

- ما هو الحل الآن يا حمدان؟ كيف يمكنني أن أساعدك الآن؟

ينظر سيف إلى باب السجن المركزي، أناس يدخلون وآخرون يهمون بالخروج منه. ينظر إليهم متسائلاً هل مجرد زوار أم تمّ الإفراج عنهم للتو؟. ينظر إلى رجلٍ وقد وضع يده على كتف رفيقه، عند هذا المشهد يعود بذاكرته ليتذكر شخصاً من الممكن أن يساعده. انطلق إلى "ميناء راشد" في منطقة "الشندغة" حيث جمارك دبي. عند الاستقبال تقدم مستفسراً عن مكتب عيسى الحمادي يجيبه موظف الاستقبال:

- إنه في الدور الرابع. هل لديك موعد؟

- في الحقيقة لا ولكنني أريد مقابلته لأمر ضروري وعاجل جداً.

- حسناً دعني أتصل بمدير مكتبه.

بعد الاتصال بمدير المكتب، سلم سيف بطاقة هويته لموظف الاستقبال الذي سلمه بدوره بطاقة زائر. استقبله "مروان" مدير المكتب طالباً منه الانتظار حتى ينتهي الأستاذ عيسى من اجتماعه. مرّر سيف نظره وهو يتناول القهوة على الصور التي علقت في ذلك المكتب. صور تأخذك إلى مراحل متعاقبة من تاريخ جمارك دبي تصور بدورها مراحل تطور الموانئ. على الطرف الأيمن وُضِع بروازاً كبيراً يحتوي على مجموعة صور رتبت حسب التواريخ التي سُطرت تحتها. كانت تلك الصور عبارة عن فريق العمل عبر تاريخ الجمارك في دبي. لم تدون الأسماء، يحاول سيف التركيز علّه يجد ملامح التاج التي لا يعرِفُها، ولكن علّ البشرة السمراء التي تميزه تساعده في ذلك. جال بخاطره متأملاً كيف تنوعت الجنسيات والألوان، وجمعها دولة تحترم الجنسيات والأديان حتى باتت نموذجاً للتعايش السلمي.

نهض مروان من كرسيه، وكذلك سيف مع خروج عيسى مودعاً ضيفه. أقبل عيسى الذي تكتسي وجهه لحية بيضاء وملامح فيها من نور الإيمان مرحباً بسيف:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام أستاذ عيسى، عندي موضوع خاص أريد أن أحدثك فيه بعيداً عن العمل، موضوع يتعلق بحالة إنسانية.

- نعم نعم حدثني مروان في ذلك على الرحب والسعة تفضل معي إلى الداخل، ولكني أعتذر منك بأن يكون اجتماعنا سريعاً لارتباطي باجتماع في المنطقة الحرة.

جلس الاثنان على منضدة، وقبل أن يبدأ الحديث دخل مروان ليُطلع عيسى على أمرٍ ما:

- المعذرة أستاذ عيسى. الأستاذ سيف بذكره للحالة الإنسانية، أحببت أن أبلغك أن صندوق التبرعات لبناء المسجد وصل إلى 90% من كلفة بنائه.

- ما شاء الله من كان يتوقع أن يصل المبلغ ليغطي 90% من القيمة الإجمالية. تذهب الأجساد، وتبقى السير. فإما سيرة عطرة وإما رحيل غير مأسوف عليه.

استدار عيسى نحو سيف وقبل أن يبدأ بالحديث نظر إلى صورة تعود إلى فترة التسعينيات:

- أترى هذه الصورة أخي سيف التي تجمع عدداً من موظفين الجمارك في حقبة من الزمن؟ فيها من بقيت ذكراه عطرة، وفيها من قيل له حسبي الله ونعم الوكيل، يُمهل ولا يُهمل. من بين الصور الكثيرة، احتفظت بهذه الصورة التي تذكرني على الدوام ببيت الشعر "وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على النفس من وقع الحسام المُهنِدِ"

التفت سيف إلى الصورة أثناء حديث عيسى، وإذا باختلاف الألوان والجنسيات تمحوها الألفة والتجانس. نظر سيف وهو يقول في خلجات صدره: لعلك يا حمدان أنت ومعيوف من تقفان بقرب من يقصده عيسى صاحب الذكرى العطرة وهو من تميز ببشرته السمراء دون غيره. يعود عيسى للحديث:

- المعذرة منك أخي سيف، أخذتك إلى أغوار ما يدور في صدري. قل لي كيف يمكنني مساعدتك؟.

- الحقيقة جئتك بعد أن تقطعت بي السُّبل للوصول إلى شخص أنت تعرفه جيداً. جئت أزف له خبراً جميلاً وإذا بي أقع حائراً لعجزي عن الوصول إليه. لعلك تتساءل لماذا جئتك أنت بالذات؟ والجواب هو لأنني أعرف أنك تكفلت بمساعدة عائلته بعد أن زُج في السجن ظلماً. وأرجو أن تعذرني عن عدم البوح بمن كلفني بالقيام بهذا الأمر.

لم يكن سيف على استعداد لإعطاء تلك الرسالة التي كتبها حمدان لعيسى كي لا يعلم من كاتبها. فقد ظل عيسى على الدوام يلقي باللوم على حمدان لما آلت له حياة التاج. باح سيف بسر خروجه مسرعاً من إدارة السجون وكيف كان عيسى هو الحل لتقديم ما يمكن أن يعتبر تكفيراً لخطيئة حمدان. قام عيسى من مكانه ينظر من نافذته إلى تلك السفن التي تُفرغ حمولتها بينما يحمل رجل سوداني أوراق إحدى الشحنات للتدقيق عليها. دموع تنهمر من عيسى نتيجة تأثره بالموقف. يعود ليسحب منديلاً يجفف به تلك الدموع. نظر إلى سيف وما زالت عيناه بالدموع لامعة قائلاً:

- ثلاثة أيام كانت متبقية يا أخ سيف على خروجه. نعم ثلاثة أيام ولكن الموت غيّب التاج قبل أن تستقبله سماء الحرية.. تلك الحرية التي سُلبت منه سلباً. كثرة ترددي على التاج

جعل المسؤولين هناك بمجرد أن يروني ينادي أحدهم باستدعاء السجين في الزنزانة رقم 20-2-20. في كل زيارة كنت أرى وجوهاً متعددة، أرى زوجات وآباء وأخوة يزورون من ألقوا بأنفسهم خلف قبضان السجون نتيجة جرم، أو جهل تصرف، أو سذاجة فكر، أو من رماهم الظلم والإجحاف. وسط أولئك كان التاج دائم الابتسامة التي في داخلها حزن غائر في صدره. بالرغم من اعتقاد الجميع لدينا أن هناك شخصاً وراء الظلم الذي لحق بالتاج؛ إلا أنه ظل يقول دائماً إن الله سيأخذ بحقه سواء في الدنيا أو الآخرة. كان يردد دائماً "الظلم ظلمات يوم القيامة، فوضت أمري لله، حسبي الله ونعم الوكيل". وبما أنك علمت من إدارة السجون أن الله قد توفاه فكيف لي بمساعدتك؟.

وضع سيف ظرفي المبلغ على مكتب عيسى:

- المظروف الأول أستاذ عيسى كان مخصصاً لدفع الغرامة الجنائية المفروضة على التاج. وبما أن التاج قد توفاه الله؛ فصار لزاماً إضافته إلى المبلغ الآخر في المظروف الثاني الذي كان مفترضاً تسليمه للتاج كتعويض له عن السنوات التي قضاها في السجن. أما الرسالة المرفقة للتاج فلا داعي لأن يطّلع عليها أحد طالما أن التاج أصبح في ذمة الله.

- سنوات قضاها في السجن. بل شبابه وحياته يا أخ سيف. أتدري أن توأميه تخرجا منذ سنة من الجامعة. 90% من إجمالي كلفة بناء مسجد للتاج تم جمعها في أقل من يومين. روح طيبة تبقى ذكراها فوق الثرى أو تحته.

تكفل عيسى بإرسال المبلغ إلى عائلة التاج التي لم ينقطع عنها طوال تلك السنوات. مسجد المرحوم بإذن الله قد تمّ تشييده في القرية ذاتها التي ولد فيها التاج في السودان في ولاية الجزيرة في قرية تمبول.

"أجساد مثواها الثرى، وأرواح معلقة عند خالقها، وسيرة تغدو بين الناس، فإما بطان بذكرى طيبة، وإما خماص سيرتها ضريعٌ لا يسمنُ، ولا يغني من جوع"

(15)

في مغرب ذلك اليوم، كان الدكتور حمدان بانتظار سيف في دبي مول، وتحديداً في شرفة مطعم "Three Avenue" المطلة مباشرة على النافورة الراقصة التي يحتشد حولها المئات في انتظار بدء تراقصها مع نغمات أغان متنوعة. مع وصول سيف، تنطلق النافورة لتتراقص مع أغنية "شلها عالي صاحب الذوق...محمد اللي بتفكيره تهيا... دانة المال للعلا فوق...راعي المجد قال دبي هيا". ترتفع مياه النافورة لترتفع معها تلك الأيادي الممسكة بهواتفها لتصويرها. دقائق وتنطفئ أنوار النافورة وتهدأ مياهها. يفترق ذلك الجمع على أمل العودة من جديد للنافورة، وأغنية جديدة تتراقص معها. ينظر الدكتور حمدان إلى ذلك الحشد الذي تفرق ثم يلتفت إلى سيف:

- أترى هذا الحشد. هناك الكثير منهم ومنا من أصبح لا يستمتع باللحظة، والسبب هذه التكنولوجيا التي باتت تطاردنا. الكثير منا يحرص كل الحرص على تصوير ذلك الحدث ليرسله إلى أصدقائه وأقربائه، بينما يُضيع الاستمتاع باللحظة. اللحظة التي يجب أن نتخذ فيها قراراً، وإذا بنا نؤجله لوقت لاحق، ونتفاجأ لاحقاً أن قيمة ذلك القرار كانت في تلك اللحظة التي تزامنت معه.

- ولعل هذا ما يمكن أن نراه في قرار حمدان الذي تأخر. ما الذي جعله لا يزامن اللحظة بالقرار؟. مات التاج يا دكتور حمدان قبل ثلاثة أيام. سبق موته حريته. ولولا أنني تذكرت شخصاً ووجدت عنده الحل لبقيت معالجة الخطيئة الثانية لحمدان معلقة.

- إذن نسأل الله أن يغفر لحمدان خطيئته، وأن يُسكِن التاج الفردوس الأعلى. التوبة النصوح يتقبلها رب العباد ولكن حقوق العباد تظل معلقة.

في تلك الأثناء دخل شاب إماراتي ألقى التحية على سيف وحمدان، وبعد حديث مقتضب انصرف للحديث مع مدير المطعم. نظر الدكتور حمدان إلى ذلك الشاب قائلاً لسيف:

- كم يسعدنا حين نرى الشباب الإماراتي يدخلون معترك النشاط التجاري. ها هو صاحب هذا المطعم نموذج مشرف للشاب الإماراتي المُكافح.

- بالفعل نموذج مشرف. هل ستكون فاتورة عشاء اليوم عليه بعد هذا الإطراء.

يركل سيف رجل الدكتور حمدان وهو يضحك بعد أن كان الدكتور حمدان على وشك أن ينهض ليقول لذلك الشاب ما قاله سيف.

بعد تناول العشاء، ومع نغمات العود العربي، جلس سيف والدكتور حمدان في "آرماني كافيه" يحتسيان القهوة. أطفال يمرحون مع ذويهم. ينظر إليهم سيف مستذكراً أبنائه وزوجته. رجل مسن يجلس مع زوجته وابنتهما مع أطفالها، ينظر سيف إليهم قائلاً للدكتور حمدان:

- أترى هذين المسنين والسيدة التي معهما والتي أعتقد أنها ابنتهم، هذا بالفعل ما أفتقده يا دكتور. فبعد أن رحل أبي وأمي قبل خمس سنوات، جاءت المسافة لتلعب دورها في حرماني من التواصل الدائم مع أختي آمنة، والتي لا أدري هل سيستقر زوجها في الدولة، أم إنه سينتقل من جديد من سفارتنا في أستراليا إلى دولة جديدة؟.

- هكذا هو العمل الدبلوماسي يا سيف ولعلهما قد اعتادا على هذا التنقل. أما أنت فقد أصبحت سفيراً للنوايا الحسنة لحمدان وتبقى لك جولتان معه.

- الجولة القادمة لا أدري كيف هي خطة حمدان التي وضعها. هي بالفعل حرجة، وليس من السهولة التنبؤ بكيفية علاجها. أنتظر المساء حيث من المفترض أن أتلقى الرسالة بعد العاشرة مساء. توقيتات وفواصل زمنية وضعها حمدان بين معالجة الخطيئة، والخطيئة التي تليها. دكتور لقد أطلت الإقامة في فيلتك وأرجو أن تعذرني لأنني أريد العودة إلى منزلي

- إطلاقاً يا سيف، إنه منزلك ولا فرق بيننا، ولم يتبق سوى أيام تفصلك للانتهاء من مساعدة حمدان عندها تعود إلى منزلك.

خلال احتساء القهوة رفع سيف هاتفه IPhone 6 لتصوير مجموعة الفراشات المتدلية من الأعلى لتغطي آفاق الساحة التي فيها "أرماني كافيه وفوشون". أمر شد انتباه الدكتور حمدان ولعله تطور في حالة سيف الذي بدأ يعود إلى حياته الطبيعية شيئاً فشيئاً. نظر إلى سيف مبتسماً:

- ما الجديد يا صديقي رأيتك تقوم بتصوير بحيرة النافورة في هدوء وسكون ألوانها، وها أنت تأخذ صورة لهذه الفراشات الجميلة. ما الأمر يا صديقي وهل أستعد لكي تلتقط لي صورة.

ابتسم سيف بينما هو منشغل بأخذ صور جديدة لتلك الفراشات من زوايا مختلفة:

- ليس بجديد يا دكتور، لقد خطر ببالي خلال رحلتي مع حمدان أمر سيعود نفعه عليّ وعلى عائلتي عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي. لقد قررت أن أفتح حساباً في الانستغرام أضع فيه هذه الصور مع بعض الأذكار بجانبها.

يخرج الدكتور حمدان هاتفه قائلاً:

- فكرة جميلة، ما هو عنوان هذا الحساب لكي أضيفه في قائمتي؟

- لم أنشئه بعد، أنتهي أولاً من مساعدة حمدان وبعدها سأقوم بذلك.

انطلق سيف بسيارته عائداً إلى فيلا النخلة. يعود من جديد إلى صديقه الذي أصبح حلقة الوصل بينه وبين حمدان. يفتح كمبيوتره الشخصي حيث البريد الإلكتروني t.b.t@psvi.com وفي انتظار الرسالة الجديدة.

بدأ حمدان رسالته بالسؤال عن التاج وكيف هي مشاعر فرحته حين علم أنه ليس مضطراً للمكوث في السجن بعد انقضاء المدة. كانت فحوى الرسالة خليطاً من فرحةٍ للتاج، وندماً على ما أجرم في حقه. بنظرة إلى سكون البحر والأنوار المتناثرة على سطحه، يعود السؤال إلى القديم المتجدد من جديد الى ذهن سيف، وهو ما هي نقطة التحول التي دفعت بحمدان لكي يكفر عن خطاياه؟. يعود الى الرسالة:

- سيف بعد أن انتهيت من مساعدة التاج، أدرك جيداً مدى ما يمكن أن يشكله التكفير عن الخطيئة الثالثة من عبء عليك. ما تعلمه عن تلك الخطيئة هو أنني تسببت بها في طلاق المها من زوجها. هذه الرسالة قد وصلت إليك وهذا يعني أن الموت سبقها لي. لا أخفيك سراً أنني لم أكن لأواجه طليق المها لمعالجة هذه الخطيئة. ولكن ما أتمناه من أعماق قلبي أن تكون لديك الجرأة لمواجهته. لن أبوح لك بما فعلته في حق المها. في الصندوق الثالث ستجد صندوقاً مقفلاً وظرفاً لرسالة موجهة إلى "مترف بن مران" طليق المها، وداخل ذلك المظروف مفتاح الصندوق. كلي ثقة بك يا سيف أنك ستقوم بإيصال الرسالة والصندوق ولن يدفعك فضولك لفتح ذلك الصندوق، فمن تحت الثرى لا ينقصه من الذنوب والخطايا أن تضيف على كاهله ذنباً آخر.

طبع سيف الرسالة بالباركود الخاص بها و وضعها بالقرب من مفاتيح سيارته، ومضى إلى فراشه في انتظار اليوم التالي. يجافيه نومه، ويصارعه فكره في كيفية مواجهة مترف قائلاً:

- لا أريد معرفة ما في الصندوق ولا أريد أن أواجه مترفاً. ما هي فحوى تلك الرسالة التي سيقرأها مترف وهل ستثير غضبه؟ بل سينفجر غاضباً بلا شك. لا أعلم ما فعله حمدان ولكن أن يصل الأمر إلى الطلاق فهو لا شك أمر سيئ للغاية. آآآآه يا حمدان هل كبرياؤك الزائف يستحق ما حدث لهذه الأسرة من تفكك وضياع؟.

في العاشرة صباحاً وصل سيف إلى بنك الإمارات الإسلامي، ليأخذه الموظف إلى صناديق الأمانات ويسلمه كالعادة ظرفاً يحتوي على رقم سري. يدخل سيف الرقم السري (19-1-

f-9). كما جاء في رسالة حمدان، وجد سيف صندوقاً مقفلاً وكذلك ظرفاً تحسسه ليلاحظ أن بداخله ما يوحي بأنه مفتاح.

ركب سيف سيارته، نظر إلى مذكرة هاتفه التي دوّن فيها عنوان مترف بن مران. انطلق بسيارته قاصداً "منطقة العوير" من جديد ولكن هذه المرة ليس للإدارة العامة للمؤسسات العقابية والإصلاحية، بل إلى معارض السيارات. وصل إلى تلك المعارض التي غصت بأنواع مختلفة من السيارات الفارهة منها والمتوسطة داخل المعارض وخارجها. أُناس يتفحصون تلك السيارات، بينما يعرض البعض سيارته للبيع. يسير بسيارته ببطء، ينظر يمنة ويسرة، يتوقف عند عامل منشغلٍ بتلميع السيارات الواقفة أمام أحد المعارض. يشير العامل بيده إلى المعرض الخامس على الطرف الأيسر. أوقف سيف سيارته أمام "معرض التميز للسيارات"، ترجل سيف حاملاً ذلك الصندوق إلى داخل ذلك المعرض الذي اكتظ بالسيارات الجديدة والمستعملة، وكذلك السيارات الكلاسيكية. هناك سيارة شدت انتباه سيف أكثر من غيرها. سيارة كلاسيكية رياضية ذات لون أزرق كلون السماء اشتهرت في فترة التسعينيات، وكانت حلم كل شاب في ذلك الوقت. لم يكن ذلك ما شدّ سيف في هذه السيارة رغم أنها أخذته إلى تلك الفترة التي عاصرها، بل لأنها بمواصفات السيارة نفسها التي كان حمدان يقودها حين حدثت خطيئته الأولى. يحدث نفسه:

- لا أدري يا حمدان هل هو فأل حسن، أم فأل شوئم أن تكون هذه السيارة في معرض طليق المها.

اقترب موظف المعرض من سيف، ليسأله إن كان يرغب في أية مساعدة.

- لا شكراً، ولكني جئت أسأل إذا كان مترف بن مران موجوداً.

- نعم إنه في المكتب العلوي تفضل.

صعد سيف الدرج مثقل الخطى يُخيل إليه وكأنه يصعد "جبل حفيت" الكائن في مدينة العين. عند وصوله إلى باب المكتب، نهض مترف من مكتبه مرحباً به. في حديث مقتضب عن أنواع السيارات ومواضيع أخرى استشعر سيف نوعاً من الهدوء والاتزان يغلف شخصية مترف. هذا الأمر وبالرغم من أنه خفف قليلاً من توتر سيف، إلا أن السبب الذي جاء به، ربما يجعل من تلك الشخصية وهدوئها مجرد هدوء يسبق عاصفة هوجاء. عم الهدوء والسكون المكان قليلاً حيث مضى سيف يحدث نفسه:

- كيف أبدأ مع مترف الحديث؟ الحل الأنسب أن أسلمه الصندوق وأنصرف، فلو كنت مكانه لما أردت أن يكون أمامي شخص في هذه اللحظة. فمهما كتب حمدان من اعتذار وتعويض في رسالته فالأمر ليس بالسهولة أن يتقبله إنسان.

يكسر مترف ذاك الصمت بقوله:

- تفضل أخي سيف كيف يمكنني مساعدتك؟.

- شخص توفاه الله منذ ثلاثة أشهر طلب مني أن أسلمك هذا الصندوق. ويعلم الله أني لا أعلم ما بداخله سوى أن هناك رسالة لك شخصياً ومعها مفتاح لهذا الصندوق. أستميحك عذراً أن أنصرف، وأترك لك هذه الأمانة.

علامات الاستغراب بادية على مترف ويقول:

- بداية أسأل الله له المغفرة والثواب. ولكن عفواً هل لك رابط معرفة به أو صلة قرابة؟. ومن هو هذا الشخص الذي لا بدّ من أنني أعرفه بما أن لي أمانة عنده؟.

- ليس قريباً لي، ولا تربط بيني وبينه صلة سوى أنني قابلته مرة في حياتي ولا أتذكره ولكنه حملني هذه الأمانة، وأنا قبلتها. لا تشغل فكرك بذلك أخي مترف الأمر أكثر تعقيداً، أستأذنك الآن بعد أن سلمتك الأمانة.

- أليست أمانة ومن شخص قد توفي منذ ثلاثة أشهر. انتظر أخ سيف لعل ما في الصندوق شيء لا يعنيني، فليس لدي أحد لا من أقاربي ولا أصدقائي قد توفي في الفترة التي ذكرتها.

بالرغم من التوتر الذي كان يشعر به سيف، إلا أنه وافق على طلب مترف الذي وجده أمراً منطقياً وبالتالي فإنه من غير المنطق أن يصر على عدم الانتظار حتى يعرف مترف ما في ذلك الصندوق. كانت الطريقة الأسهل لسيف لكي يخفف من وطأة الأمر أن ينتظر مترف في الأسفل حتى ينتهي من قراءة الرسالة ومعرفة ما في الصندوق.

تجول سيف مع موظف المبيعات بين السيارات المعروضة. عند كل سيارة يبدأ ذلك الموظف بإعطاء سيف نبذة بسيطة عن السيارة كان سيف يركب السيارة تلو الأخرى، وينظر عبر المرآة إلى المكتب العلوي بانتظار ما سيحدث. بعد فترة وبينما كان سيف ينظر إلى ذلك المكتب عبر مرآة إحدى السيارات خرج مترف من مكتبه لينادي على عامل المعرض يطلب منه شيئاً. نزل مترف ومعه الصندوق والرسالة في يده. لم تكن ملامح الوجه كما كانت عليه طلب من مسؤول المبيعات أن يتركه مع سيف:

- سيف أرجوك أن تصدقني القول. هل هذا الشخص قد مات؟.

- لو لم يكن مات، لما وجدتني أمامك.

- وهل أنت على علم بما قام به؟.

- لا أعلم سوى أن هذا الرجل قد توفاه الله، وكلفني بالقيام بهذا الأمر، وأنا قبلت تعاطفاً مع من لا حيلة له. ويعلم الله أنني سلمتك الأمانة كما هي ولا علم لي بما تحويه.

قاطع العامل حديث سيف ومترف. طلب مترف من سيف مرافقته في الخارج. لاحظ سيف أن العامل قد أوقد ناراً في برميل فارغ خارج المعرض وبعيداً عن السيارات المصفوفة في الخارج. اقترب مترف من ذلك البرميل وقام برمي الصندوق مع الرسالة التي كانت بحوزته. تصاعدت النيران ليخرج منها دخان أسود كثيف. بعدها هدأت بعدما التهمت الصندوق بما يحتويه.

نظر مترف إلى سيف واضعاً يده اليمنى على كتفه الأيسر قائلاً:

- سيف أترى ما في داخل هذا البرميل. في الحقيقة ما هو إلا أمر قد مضى عليه سنوات طوال، وهو ما جعلني أقوم بإحراقه دون أن أطلع على محتواه. إن كان ذلك الشخص الذي مات كما تقول يعتقد بفعلته أو أقول خطيئته أنه كان سبباً في قرار اتخذته فهذا غير صحيح. تزامن خطيئته مع ذلك القرار أوهمه بذلك. قراري جاء بناءً على أسباب أخرى، ولكن هذا لا يعني أن ما قام به هو ومن تواطأ معه، أمرٌ يغتفر. لا أريد أن أخوض في أمرٍ مضت عليه سنين طوال وأصبح في غياهب التاريخ..

لدينا حاضر لننجز فيه مسؤولياتنا، ومستقبل نتطلع له علَّه يأتي بالأفضل، أستأذنك فلدي التزامات.

ركب سيف سيارته مخيب الأمل يمر بجانب ذلك البرميل الذي لازال يخرج قليلاً من ذلك الدخان يمضي لينظر من خلال مرآة سيارته وإذا بالعامل يسكب ماء في ذلك البرميل ليطفئه. يقول سيف:

- لا أدري يا حمدان ما الذي ارتكبته في حق المها، ما أرسلته لمترف أحرقه دون أن يطلع عليه. أحرقه، وبقي الأمر بينك وبينه. الجيد في الأمر أن ما قمت به لم يكن سبباً في ما آل إليه مصير المها. مترف لم يُطلق المها بسبب خطيئتك ولكن يبقى ما قمت به يا حمدان ذنب لا يُغتفر كما قال مترف.

"أسرار دفينة وماضٍ مؤلم. ننسى بل نتناسى جُلها، وتوقظ الظروف بعضها، والفطين من يخمد شعلة نارها قبل أن

يحرمه رماد حزنه الاستمتاع بحياة يعيشُها"

(16)

لم يشأ سيف في مساء ذلك اليوم أن يخرج من فيلا الدكتور حمدان حيث كان منهمكاً في إضافة بعض العبارات على تلك الصور التي التقطها، والتقاط عدد من الصور لهدوء البحر وانعكاس الأضواء عليه. دخل الدكتور حمدان الفيلا، ولكنه لم يجد سيف، نظر من الشرفة المطلة على البحر، وإذا به منهمكاً في التقاط الصور من زوايا مختلفة. تسلل الدكتور حمدان إلى تلك الشرفة وبصوت عالٍ أفزع به سيف:

- تصوير تاااااااااااايم

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أفزعتني الله يهديك.

- لا لا لا يا سيف يبدو أنك أصبحت مدمن تصوير.

- لست كذلك ولكنه إعداد لمشروع قادم.

- وهل سيحرمني هذا المشروع من العشاء؟، هيا بنا إلى فندق "زعبيل سراي"، وأكمل التصوير هناك.

عند مدخل الفندق تستقبلك نوافير ساطعة اللون يغتنم سيف الفرصة لالتقاط صور لها. نافورة أخرى تطل عليك في الداخل بألوان ومياه هادئة. على الطرف الأيمن من بهو الفندق يختار الدكتور حمدان طاولة بالقرب من رجل وامرأة مسنين لهما ملامح أوروبية وضعت أمامهما كعكة بمناسبة مرور 42 عاماً على زواجهما كما قالت لهما النادلة. وبينما كان سيف منشغلاً بتصوير الثريات ذات الألوان التي امتزجت باللون الأحمر والبرتقالي والفيروزي، توجّه الدكتور حمدان إلى المسنين لتهنئتهما..

بعد تناول العشاء في مطعم النافورة، وقف سيف والدكتور حمدان بجانب حوض السباحة فراح سيف يلتقط الصور، خاطبه الدكتور حمدان:

- لم يتبق يا سيف أمامك سوى يوم واحد، وتنتهي مهمتك مع حمدان. هل من مفاجآت أخرى تتوقعها؟.

- لا أدري دكتور ما الذي أعدّه حمدان ليكفر عن خطيئته الأخيرة، ولا أدري ما إذا كان هناك جديد أم لا. غداً ينجلي ما كان خافياً.

- إن كانت الأخيرة فإنني سأطلق سراحك من الفيلا، أما إذا جدّ جديد؛ فتأكد يا صديقي أن لا مفرّ من بقائك. ولا تنس أن هناك زوايا ما زالت تحتاج إلى عدسة تصوير هاتفك..

ودع الدكتور حمدان سيف عند فيلا النخلة. يتوجه مباشرة إلى كمبيوتره الشخصي. رسالة بريدية تصل إلى سيف من t.b.t@psvi.com جاء فيها:

- كيف سارت الأمور يا سيف؟ هل شعر مترف بالذنب؟ وتأكد أنه أرتكب خطأ في حق المها بسبب لم يكن لها ذنب فيه؟. هل تعتقد أنه سيتزوجها من جديد بعد كل هذه السنين؟. ألا تستحق المها أن تُعوّض عن سنين الأسى التي عاشتها بذنب لم ترتكبه؟. هل غفر لي مترف ذنبي؟.

امتلأت تلك الرسالة بالعبارات التي بدأت بكلمة هل وهل وهل. تساؤلات لا إجابة لها. يخاطب سيف شاشة الكمبيوتر:

- أتمنى يا حمدان أن تنطفئ ذنوبك من هذه الخطيئة كما أطفأ ذلك العامل بقية النار والدخان في ذلك البرميل الذي أحرق فيه مترف ما أرسلته له دون أن يطلع عليه.

يكمل سيف ما تبقى من الرسالة:

- خطيئتي الأخيرة يا سيف، وبعدها يتبقى أمامي أمر واحد أخبرك عنه والذي ظل شاغلاً بالك طوال هذه الفترة.

- ما الذي حدث لك يا حمدان جعلك تستشعر الندم، وتقرر أخيراً أن تكفر عن أخطائك؟ ما هي نقطة التحول؟ هذا ما أريد معرفته.

- الرسالة البريدية التالية تجد فيها الباركود، ولا تنس أن تتمعن في ملامح عبيد حين يفتح ما ستسلمه إياه.

يقف سيف بالقرب من الطابعة، يأخذ نسخة الرسالة البريدية ويقوم برميها في سلة المهملات بعد أن لاحظ عدم وضوح الباركود فيها ليقوم بطباعتها من جديد. يضع النسخة بالقرب من مفاتيحه ومحفظته استعداداً ليوم جديد في رحلته مع حمدان. مشاعر فرح يستشعر بها مع اقتراب الانتهاء من مهمة مساعدة حمدان، تخالطها مشاعر حيرة عما ستكون حياته بعد أن ينتهي من هذه المهمة. هل سيعود من جديد لحالة الانطوائية والاكتئاب مسترجعاً ما آلت إليه حديقة بيته الغناء. يتجدد الأمل من جديد بعد أن استذكر تلك الصور التي التقطها، وكيف سيكون لها أثرها على من فقدهم من خلال حساب الانستغرام وغيره من الخطوات التي يتطلع للقيام بها. استسلم للنوم بعد إرهاق البدن والفكر في انتظار شمس الغد.

ينظر سيف إلى ساعة هاتفه وإذا بها العاشرة صباحاً. قفز سريعاً من سريره وأخذ حماماً وانطلق بعدها إلى مصرف الإمارات الإسلامي. توجه مع الموظف إلى صناديق الأمانات عند الصندوق 20-2-20 يدخل سيف الرقم السري (S-1-9-6) لم يكن هناك سوى ظرف غَصَ بأوراق بداخله كُتب عليه "إلى الأستاذ عبيد مع التحية".

دقائق معدودة وأمتار بسيطة هي المسافة بين مصرف الإمارات الإسلامي في المدينة الطبية وهيئة كهرباء ومياه دبي، وهي المسافة ذاتها والوقت ذاته التي تفصل سيف عن اللقاء بعبيد وقراءة تعابير وجهه وما سيرتسم عليها بعد أن يفتح المظروف.

في الطابق الأول المكتب رقم 20 توقف سيف بالقرب من باب المكتب، تراجع قليلاً بعد أن سمع صوتاً مرتفعاً يقول:

- أنا لست موافقاً يا ولدي محمد على قرارك. قلت لك سأتدبر أمري. لا تجعلني يا بني أسترجع الماضي، واتذكر كيف.. إذن أكمل سنتك الأخيرة يا محمد، ولا أريد منك أن تكرر ما قلته لي.

هدوء تلا ذلك الانفعال شجع سيف على أن يتقدم قليلاً. تسمرت يده قبل أن يطرق الباب، حيث ترك ذلك الرجل الجالس على مكتبه يكمل دعاءه الصامت وهو رافع يديه إلى الأعلى. انخفضت يداه لينخفض معها رأسه بين ذراعيه. يتشجع سيف ويطرق الباب. رفع الرجل رأسه وبصوت بدا عليه الأرق والقلق قال:

- أهلاً وسهلاً تفضل.

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضل.

- دام فضلك الأستاذ عبيد أليس كذلك؟

- نعم تفضل أخي، كيف لي أن أساعدك؟ هل أُضيفك ماء أم كهرباء؟

يبتسم سيف قائلاً:

- لا لا شكراً جزيلاً. أعرفك بنفسي أولاً أنا سيف، وأتمنى أن تكون الأمور على ما يرام.

ضحك عبيد خجلاً لأن صوته كان عالياً بينما كان يحدث ابنه:

- يبدو أن صوتي قد صمّ الآذان، المعذرة منك. الأمور على ما يرام ولله الحمد، نحن في نعمة وخير ولكنها الحياة فيها ما يسعدك وما يحزنك. ابني في سنته الجامعية الأخيرة ويريد أن يتركها ليعمل. هل يُعقل ذلك؟. لا عليك يا أخي الكريم ثم لا تنس أنني في هيئة بها كهرباء وماء. حين ترتفع حرارة مشاكل الحياة أقوم بتبريدها بالماء، وصعقة الكهرباء مصير هممي إن أثبطتها مطبات الحياة. التفاؤل سبيلنا في الحياة بكل ما تحمله. الآن أخبرني هل تريد ماء أم صعقة كهرباء؟.

ضحك سيف واضعاً يديه أمامه في إشارة إلى أنه لا يريد أياً من الخيارين. أدخل سيف يده في جيبه الأيمن و أخرج المظروف ليقدمه لعبيد قائلاً:

- أنا هنا لأقدم لك هذا المظروف من فاعل خير طلب مني تسليمك هذه الأمانة. لا علم لي بما يحتويه ولكن من يرى تفاؤلك يستبشر الخير تفضل افتحه لعله خير. وأرجو أن لا يكون ما يحتويه سبباً لأن تصعقني أو تغرقني بدلو ماء.

ابتسم عبيد وأخذ المظروف وهو يضحك، ثم فتحه. ظل سيف محدقاً في تعابير وجهه. تجحظ عيناه تارة، وتضيق تارة أخرى. ينظر إلى سيف ثم يعود لينظر إلى الورق. يضحك فجأة، وفجأة يتمالك نفسه، وكأن علامات البكاء بادية عليه، ينادي بصوت عالٍ:

- خليفه خليفة...تعال من فضلك...

ينظر إلى سيف ومشاعره مختلطة:

- عذراً يا سيف ولكن أريد إطلاع خليفة على هذه الورقة.

دخل خليفة، سلم على سيف ثم التفت إلى عبيد:

- نعم أبا محمد.

- خليفة ألم تشتر أرضاً في منطقة المردف منذ عامين.

- نعم صحيح

- أرجوك ألقِ نظرة على هذه الأوراق هل هي صحيحة وأختامها موثقة.

نظر خليفة إلى الأوراق والتعابير ذاتها التي اجتاحت وجه عبيد، تجلت في ملامح خليفة، ولكنه كان أكثر استغراباً. ينظر الى عبيد ممسكاً بذقنه:

- الأوراق صحيحة يا عبيد وهي الأوراق ذاتها التي تسلم لأي قطعة أرض. ولكن يا عبيد هناك أمر غريب. أعتقد أن الأمر غير صحيح.

نظر سيف إلى عبيد الذي تغيرت ملامح وجهه مع ارتفاع حرارة مشاكل الحياة وعودتها من جديد إليه. ماء وصعقة كهرباء كان بحاجة لهما في ذلك الموقف. يضع عبيد الورق على المظروف يحركها باتجاه سيف:

- تفضل الأوراق يبدو أنها غير حقيقية. وجزاك الله ومن أرسلك خيراً.

تصبب العرق من جبين سيف وبدا مرتبكاً نتيجة ذلك الإحراج الذي وقع فيه، وتمنى تلك الصاعقة الكهربائية التي تفقده الوعي ليتجنب تعابير الأسى والحزن التي ارتسمت على وجه عبيد. أخذ سيف الأوراق وقف بالقرب من خليفة وفتحها:

- أين المشكلة في الأوراق والتوثيق أخ خليفة؟ هل هي أوراق مزورة؟

- لا لا إطلاقاً هي بالفعل أوراق صحيحة، ولكن أن تكون هذه الأرض باسم عبيد فهو أمر جد غريب.

- وما المشكلة في أن تكون باسم عبيد طالما أنها أوراق صحيحة.

- كما قلت لعبيد، أخ امممم.

- سيف.

- نعم أخ سيف. كما قال عبيد، لقد اشتريت قطعة أرض في مردف منذ سنتين وبدأت في بنائها. قطعة الأرض الخاصة بي هي برقم 19-2-20 هذه الأوراق تشير إلى أن الأرض التي سجلت باسم عبيد هي رقم 20-2-20 وهذا يعني أنها ملاصقة لأرضي. هذه الأرض بنيت عليها فيلا تمّ إنجازها منذ قرابة ستة أشهر وتمّ تأثيثها بالكامل خلال الثلاثة أشهر الماضية. ولكن إلى الآن لم ينتقل إليها أحد فكيف..

قاطع عبيد صديقه خليفة موجهاً نظره إلى سيف:

- فكيف يا سيف أستطيع أنا بوضعي هذا الذي يعلمه صديق عمري خليفة شراء هذه الأرض وبناء فيلا عليها؟.

أطبق سيف الورق ممكساً رأسه وكأن الدنيا أطبقت عليه من شدة الإحراج، يتذكر إصرار حمدان على رؤية ملامح عبيد وهو يستلم الورق ويقول في نفسه:

- يا ليتك يا حمدان تشاهد ما فعلته بي وبعبيد. هل يستحق منك كل ذلك؟ وما الذي فعلته بك لكي تضعني في هكذا موقف؟.

يتقدم سيف باعتذاره الشديد لعبيد مؤكداً أنه لو كان يعلم ما في ذلك المظروف؛ لما وضع نفسه في هذا الموقف. أخذ سيف بالمظروف بيده اليسرى ليضع تلك الأوراق التي أمسكها بيده اليمنى في المظروف. عند باب المكتب توقف سيف وهو مدبر عن عبيد. استدار ملتفتاً إلى عبيد:

- أخ عبيد، هل تفحصت جميع الأوراق التي كانت في المظروف؟

ينظر عبيد إلى خليفة ثم يعود بنظره إلى سيف:

- هل هناك أوراق في المظروف غير التي قرأتها؟.

بصيص من الأمل يعود من جديد. يعود سيف إلى مكتب عبيد:

- هناك بقية أوراق داخل المظروف يا أبا محمد ألق نظرة عليها.

يتمعن فيها عبيد ثم يمررها إلى خليفة. تعابير فرح ارتسمت على وجه خليفة وتسربت بدورها إلى عبيد.

يحدث سيف نفسه:

- لعل هذه النظرة التي تقصدها يا حمدان وكنت تنتظر مني رؤيتها على وجه عبيد.

يضم خليفة صديق عمره عبيد إلى صدره بقوة ودموعه حبيسة حائرة في عينيه. يوجه عبيد نفسه تجاه القبلة وينظر إلى خليفة الذي قام بالاتصال بالرقم الذي دوّن في تلك الأوراق. تبتهج أسارير خليفة ويومئ لعبيد بنعم لِيخِرَ عندها عبيد ساجداً سجدة شكر لربه. يتصل عبيد بابنه محمد:

- ألم أقل لك يا بني إنني سأتدبر أمري. لقد دبره من خلقني، هل أدركت الآن لماذا لم أَحَمِّل أي شخص وزر ما قمت به بنفسي؟. الحمد لله على كل حال.

اقترب عبيد من سيف حيث ضمه إليه فرحاً شاكراً له. أمسك كتفيه بذراعيه قائلاً:

- شكراً لك يا سيف الآن تستحق صعقة كهربائية تعبيراً عن شكري وامتناني لك.

ضحك سيف وضم بدوره عبيداً له وجمح بخياله:

- آآآآه أين أنت يا حمدان لترى وجه من عانى منك ومن معيوف. بالرغم مما فعلته؛ ظل يُحمِّلُ نفسه الذنب.

في بقية الأوراق التي لم ينتبه لها عبيد، كان هناك مخطط للفيلا وعقد شراء لها باسمه. وما كان عليه سوى أن يتوجه إلى مكتب "كاسيا" للاستشارات الهندسية الواقع في ديرة خلف "مركز أبو هيل". ليستلم مفاتيح فيلته من الدكتور المهندس "محمد سليمان". تلك الفيلا التي تتكون من خمس غرف ومجلسين وصالة إضافة إلى الخدمات الأخرى. ورقة أخرى كانت تحمل الرقم السري لخزانة وضعت في الغرفة الرئيسية لعبيد. وضع عبيد ورقة الرقم السري في محفظته على أمل مفاجأة جديدة تسره وتسر عائلته.

"تغيب نسائم الفرحة وتذبل بساتينها. ويبقى الأمل غيمة تفاؤل تتساقط منها قطرات مطر الحياة للبساتين ونسائمها"

(17)

سعادة غامرة تجتاح سيف وهو عائد إلى فيلا النخلة. يستمع إلى "إذاعة نور دبي" تناقش موضوعاً بعنوان "اغتنم خمساً قبل خمس"، عنوان مقتبس من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: "اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك". يتحدث فيه الشيخ الدكتور "عبدالله الكمالي" وكذلك أستاذ علم الاجتماع "منصور جودت" عن انعكاس الأعمال الصالحة ومساعدة الآخرين على نفسية الإنسان واستقباله للحياة والظفر بالأعمال الخيّرة قبل أن ننتقل إلى الخمس الأخريات البديلات التي لا مفرّ منهن. يتوقف سيف عند "إمارات مول"، ويتوجه إلى "apple store" لشراء IPhone 6 plus حيث المهمة الجديدة تحتاج إلى شاشة أكبر لالتقاط الصور. يجلس سيف في "أنجلينا كافيه" يحتسي القهوة في انتظار انتهاء ضبط هاتفه الجديد، ونقل جميع البيانات في أحد محلات الهواتف. قبل خروجه توقف سيف عند نافورة رخامية ضخمة تحوطها مجموعة من المطاعم بينما تطل عليها من الأعلى المحلات ذات العلامات التجارية. يخرج هاتفه الجديد يلتقط صوراً لتلك النافورة ليتوجه بعدها إلى فيلا النخلة.

في طريق عودته اتصل بالدكتور حمدان يخبره بانتهاء مهمة مساعدة حمدان بنجاح، وأنه سيعود إلى بيته، غير أن الدكتور حمدان أصرّ عليه أن ينتظر حتى المساء.

عاد سيف إلى فيلا النخلة، وقد غادرها للتو العامل "بشير" الذي يأتي لتنظيفها صبيحة كل يوم. في شرفتها فتح كمبيوتره ليضغط على ذلك الزر الذي يؤكد إنجاز المهمة الأخيرة. ما هي إلا دقائق حتى وصلت رسالة بعنوان:

"أين كان مبلغ ثلاثة ملايين درهم عبيد؟"

- كيف كانت ملامح عبيد يا سيف؟، هل رأيت الفرح بادياً على وجهه؟. الحقيقة يا سيف أنني لا أتذكر سوى وجهه الحزين في آخر مرة رأيته فيها. أتذكر أنه لم يلقِ علي اللوم لأنني أخبرته منذ البداية أن تجارة الأسهم فيها الربح والخسارة ولكنه كان يعاتبني لعدم تجاوبي معه حين كان يقول لي إنه يرغب في الخروج وإنه قانع بما ظفر به. هل يجب عليّ اعتبار ما حدث خطيئة؟ ألست أنا صاحب المحفظة والعقل المدبر والخبير فيها وقد خولني الجميع ذلك؟ إذن ما قمت به مجرد محاولة لتعزيز استثمارات هذه المحفظة، ولكن كغيري خسرنا الرهان، واكتشفنا أننا بعيدون كل البعد عن إدراك أسرار وخبايا سوق الأسهم. لا

يستطيع أحد أن يلقي عليّ اللوم بالرغم مما تكبده من خسائر. أين خطيئتي إذن مع عبيد؟!!.

كان عليّ أن أستجيب لرغبته في الخروج من سوق الأسهم، ولكنني كنت أماطل لأنني في واقع الأمر لم أضع ماله في سوق الأسهم يا سيف!!.

بعد أن أقنعته أنا ومعيوف بعوائد سوق الأسهم؛ استسلم لنا وقام برهن منزله للبنك. وبعد أن كان يحلم المسكين بتأمين مستقبل أبنائه، إذا بالبنك يحجز على بيته، ويبيعه لاحقاً. لماذا لم أوافق على طلب عبيد؟ ولماذا لم أتدارك الموقف حين كان السوق على وشك الانهيار؟. الحقيقة أن مبلغ الثلاثة ملايين درهم الذي أخذته منه، لم يكن من الأساس في سوق الأسهم، بل أودعته في البنك الذي ضاعفه لي لأقوم بالاستثمار في سوق العقارات الذي لم يكن أفضل حالاً من سوق الأسهم. مجرد عقارات بدأت أساسات بعضها في البناء، بينما بعضها كان بيعاً وشراءً على الورق.

هنا يا سيف أستطيع القول إن ما قمت به في حق عبيد خطيئة كان لا بد من أن أعوّضه عنها. أتمنى أن تكون الابتسامة قد عادت إلى محياه.

شكراً لك يا سيف على مساعدتي، وأسأل الله أن يجعل ما فعلته لي في ميزان حسناتك وحسنات والديك. تنتهي رحلتي معك ويودعك البريد الالكتروني t.b.t@psvi.com، هل بقي من شيء؟ غداً تصلك رسالة لسؤالك المُلح وهو ما هي نقطة التحول في حياتي التي دفعتني للتكفير عن أخطائي؟.

أغلق سيف حاسوبه الشخصي، ووضعه في حقيبته على موعد أن يلتقي به في الغد لمعرفة نقطة التحول التي قلبت حياة حمدان رأساً على عقب. في مساء ذلك اليوم، وبعد تناول العشاء مع الدكتور حمدان، قام سيف بأخذ حقيبته إلى سيارته. سأله الدكتور حمدان:

- أخبرني يا سيف ما الذي تخطط له بعد أن انتهت رحلتك مع حمدان.

- يا لها من رحلة مليئة بالأحداث يا دكتور ساعدتني بالفعل على التفكير في جوانب كثيرة وهذه الصور التي ألتقطها ما هي إلا جزء من خططي المستقبلية. بمجرد عودتي إلى منزلي سأعود يا دكتور إلى ملفي الأزرق لأستكمل ما بدأته.

- ولا تنس أنك بانتظار اكتشاف نقطة تحول حمدان.

- صحيح ولكن الأهم أنني ساعدت ذلك الشخص الذي لا حيلة له ولا قوة. ملفي الأزرق في انتظاري، وحان وقت العودة إلى المنزل. شكراً لك دكتور على وقتك وعلى استضافتك لي.

- الشكر لله ثم لحمدان الذي ساهم بعودة الألوان إلى دنياك، وإدراكك أن فيها ما ينفع من عليها ومن تحتها. سأرسل لك فاتورة الإقامة في الفيلا غداً مضافاً إليها كلفة خسارتي لكل زيارة لك لعيادتي وإلغاء مواعيد مرضاي، وفاتورة تعاقدي مع ستاربكس ليرسلوا لي "الخبيصة الستاربكسية" كل يوم لمدة شهر.

ينطلق سيف بسيارته وسط ضحكات ينظر إلى الدكتور حمدان من نافذة سيارته قائلاً:

- كان حرياً بك أن تطلبها اليوم قبل الغد.

وصل إلى منزله وإذا بأنوار سور المنزل خافتة، وانحناء نخيل الحديقة الخارجية يذكره بمن رحل. لكنه يقرر هذه المرة عدم الاستسلام للحزن، والعودة من الغد إلى حياة ملؤها الأمل. فالحزن لن ينفعه ولا عائلته التي رحلت.

طلب من صفوان أن يقوم بتنظيف الحديقة وإزالة كل الشجر الميت واستبداله بشجر جديد، والاتصال بالشركة المتعهدة بتنسيق الحديقة لتباشر عملها، كما طلب منه من الغد ترتيب الغرفة الرئيسية لينتقل إليها بعد أن ظل طوال تلك الفترة منعزلاً، وحبيس الغرفة التي تقبع في الطابق السفلي. لم يصدق صفوان ما سمعه، وكيف أن هذه الأيام التي قضاها سيف خارج المنزل أعادته من جديد إلى جوانب أخرى غابت عنه منذ ثلاثة أشهر.

دخل غرفته في الطابق السفلي، أخذ الملف الأزرق يقلب في أوراقه ثم جلس إلى المكتب. أحضر صفوان دلة الشاي بالنعناع، وقوارير ماء ثم مضى لترتيب الغرفة الرئيسية، ليمضي سيف في رحلة استغرقت ست ساعات في كتابة ما يجول بخاطره.

عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل كان سيف قد انتهى من الكتابة، وضع الورق داخل ذلك الملف الأزرق، ثم وضعه على الطرف الأيمن من السرير. توضأ وصلى قيام الليل ثم خلد الى النوم استعداداً لغدٍ جديد خطط له ولمن هم تحت الثرى. وتذكر أيضاً أنه على موعد لمعرفة نقطة التحول التي حوّلت حياة حمدان.

"نقاط تحول تزاور حياتنا بين فينة وأخرى، يظفر بعضنا بها، وتصبح لغيرنا محطة مر بها قطار حياتهم دون توقف وإدراك لقيمتها"

(18)

في حديقة المنزل وتحت شجرة الغاف التي تساير جنباً إلى جنب الموروث الإماراتي ومع صوت حمام الراعبي، يتناول منصور شقيق سيف الإفطار مع زوجته، يتبادلان الحديث حول سيف ونفسيته التي تأثرت بفراق أسرته وقبلها موت والديهما، وأختهما التي لا يرونها سوى مرة كل سنتين. وضعت زوجة منصور كوب الشاي على الطاولة نظرت إلى زوجها:

- منصور لم يتبق لسيف سواك. أختك آمنة من الصعوبة أن تترك زوجها وأبناءها وتعود إلى الإمارات. أخوك سيف بأمس الحاجة إليك.

- أعلم ذلك يا حصة، ولذا أحاول قدر طاقتي إنجاز أعماله سواء في الشركة أو غيرها.

- سيف يحتاج إلى أكثر من ذلك يا منصور.

- بإذن الله. لقد وعدته بالأمس أن أمرّ عليه في الساعة الحادية عشرة صباحاً، فهناك أمور كثيرة لا بدّ من إنجازها معه. ها هي الساعة قد قاربت على الموعد، لا تنتظروني على الغداء، فسوف آخذ سيف إلى المطعم الذي يفضله.

توجه منصور إلى منزل سيف الكائن في منطقة ند الحمر. عروق الرجل التسعيني لازالت قابعة على جدار السور الخارجي، بينما لا تزال خشاش زرع الحديقة الخارجية تنثر لونها الحزين على تلك الحديقة. دخل منصور ولازالت النافورة مملوءة بورق شجرة الياسمين الهندي. ثلاث شجرات نخيل ما زالت في تلك الحديقة على الرغم من فراقها للحياة. ينادي منصور على صفوان الذي كان ينشر الملابس التي أخرجها للتو من الغسالة:

- كيف حالك صفوان؟. أين سيف؟

- الحمد لله بخير، لم يخرج من غرفته حتى الآن، ولا أستطيع إيقاظه فهو يغضب إذا قمت بذلك

- ولكنني قلت له إنني سأمر عليه اليوم، طيب طيب شكراً صفوان سأوقظه بنفسي.

نظر منصور إلى حوض الزهور على مدخل الفيلا وإذا بهما تراب وخشاش زهر. فتح باب الفيلا التي استبشرت بنورٍ فارقها منذ مدة، ولا يكاد يزورها إلا عند فتح الباب أو جهد جهيد لذلك النور ليتسرب من أطراف الستائر التي تصارع الشمس لمنع دخول أشعتها.

نزل منصور إلى الطابق السفلي، وطرق الباب المرة تلو الأخرى دون استجابة. عاد إلى الخارج لينادي على صفوان:

- صفوان هل سيف ينام بالعادة إلى هذا الوقت؟

- في الحقيقة لا أدري ولكنه يفضل الجلوس في الغرفة كثيراً حتى لو لم يكن نائماً.

عاد منصور من جديد ليطرق الباب ولكن دون جدوى. اتصل على هاتف سيف المحمول. صوت رنين ولا مجيب. نفد صبره، عاد إلى الوراء قليلاً يركل الباب بكل قوة لكنه عجز عن كسره. نادى على صفوان ليساعده. كُسِر الباب.

أضاء نور الغرفة وإذا بسيف واقع على الأرض مسجى. حملاه منصور وصفوان إلى السيارة، لينطلقا به إلى "مستشفى لطيفة". عند غرفة الطوارئ خبر ينزل كالصاعقة على منصور. لقد فارق سيف الحياة منذ ساعات. سقط صفوان أرضاً يبكي بحرقة، بينما وضع منصور غترته على وجهه سانداً جبهته إلى الجدار.

وصلت سيارة إسعاف في الثالثة ظهراً إلى مسجد مقبرة "القوز" لينزل منصور منها وفي استقباله عدد من أقاربه وأصدقائه وكذلك أصدقاء سيف. حملوا نعش سيف، ليضعوه على الطرف الأيمن داخل المسجد. يقف منصور بالقرب من جسد سيف المسجى. ينظر إليه، ويسترجع ذكرياته حينما كان سيف فرحاً بعودة ابنه ناصر من أمريكا. ينظر إليه، ويتذكر بناته الثلاث ونخلاتهن الثلاث. بعد صلاة العصر وضع النعش أمام الإمام ليصلى عليه صلاة الميت بأربع تكبيرات، تلت الأولى سورة الفاتحة، ثم تلت الثانية الصلاة الإبراهيمية، وبعد الثالثة الدعوة لسيف يطيل فيها الإمام الفترة لإفساح المجال للدعاء، تأتي التكبيرة الرابعة للدعاء لجميع موتى المسلمين بعدها تسليمة واحدة.

تتسابق الأيادي لحمل النعش على الأكتاف لوضعه في سيارة الإسعاف. تسير سيارة الإسعاف الهوينى، بهدوء وسكينة باتجاه المقبرة وخلفها جموع أثارت الغبار مع مشيها. تتوقف عند قبور خمسة، حُفر بالقرب منها قبر سيف. إنها قبور عائلته. نزل منصور وأحد أقربائه داخل القبر يمدوا يدهم للأعلى، بينما تسلمهم أيادي الآخرين جسد سيف مغطى بكفنه. توسد يمناه رُصت الحجارة والطميُ يُسدُ فواصلها. يمد البعض يديه لتلتحم بيد منصور وقريبه للخروج من القبر. يتهاوى التراب على ذلك القبر. يجلس الجميع القرفصاء، يخيم الصمت إلا همس ودعاء للميت. بعدها يقف منصور عند باب المقبرة لتقبل التعازي. نُصِبت خيمة العزاء أمام بيت منصور. ثلاثة أيام انقضت من العزاء، ولم يحضر العزاء الدكتور حمدان ولا مطرش الذي يعتبر صديق سيف المقرب قبل رحيل عائلته. عند غروب اليوم الرابع توجه منصور إلى منزل سيف. عند باب الفيلا يقف صفوان الذي ارتسم على وجهه الحزن. ضمّ منصور صفوان إليه، طالباً منه جمع ملابس سيف لتوزيعها على الجمعيات الخيرية.

دخل منصور الفيلا التي كانت قبل شهورٍ ثلاث عامرة بأهلها. ها هو يدخلها وقد بدت خاوية على عروشها. دموع تنهمر وحزن يجتاح القلب. ينزل إلى الطابق السفلي وإلى تلك الغرفة التي قضى فيها سيف ما بقي من عمره بعد أن فقد أسرته. مفاتيح ومحفظة وهاتف IPhone 6 وضعت على الطاولة، و أوراق كمشتها قبضة يد غصت بها سلة المهملات أسفل المكتب. تسقط عينا منصور على ذلك الملف الأزرق، وبالقرب منه ساعة رقمية. يرفع منصور الملف ليقرأ ما كتب عليه، وإذا بالأوراق تتساقط منه لتتناثر على الأرض. يضع منصور الملف ليجمع الأوراق المتساقطة، وإذا به يسقط معها من هول ما قرأه في إحدى الأوراق. يسند ظهره على السرير. يقوم بترتيب الصفحات حسب الترقيم. في الصفحة الأولى كتب سيف التالي:

"سأكفر عن الخطايا الأربع التي ارتكبتها، قتلت نفساً وسجنت أخرى، فرقت بين امرأة وزوجها و سلبت بيت العمر من صاحبه"

يقلب منصور في الأوراق لينتهي بورقة دَوّن فيها سيف حساب الانستغرام عنوانه **T.B.T.1** والرقم السري له. ينهض ممسكاً بالأوراق بعد أن وضعها على وجهه سارحاً بفكره لمدة من الوقت. يضع الأوراق على المكتب الصغير ثم يسحب ورقة ليدون عليها أرقاماً وأحرفاً. تركها على الطاولة، ليأخذ كيساً هَمَ بجمع الأوراق التي رُميت في سلة المهملات. يمسك بالكيس بيده اليسرى مع بقية الأوراق، بينما يسحب الباب بيده اليمنى بعد أن أطفأ نور الغرفة. بقي الباب مواربا يخترقه بصيص نور بسيط قادم من خارج الغرفة ليمر على ذلك الملف الأزرق والورقة التي ألصقها سيف عليه.

يتراءى **طيف سيف** وكأنه يحوم حول ذلك الملف، ينظر إلى تلك الورقة التي ألصقها سيف على الملف وإذا بها عبارة:

"اليوم قبل الغد"

ينظر إلى الساعة الرقمية وقد توقفت عند **20:2:20**. إنه التوقيت ذاته الذي خرجت فيه المها من البناية، واختار عندها حمدان الانتقام لكبريائه. وهو رقم صندوق الأمانات في مصرف الإمارات الإسلامي، وكذلك رقم زنزانة التاج أيضاً. هو ذاته رقم رحلة الطيران التي عاد بها التاج من تايلند لتدك تلك الفيلة مستقبله. رقم قطعة الأرض ذاتها التي بُنيت عليها فيلا، ومُنحت لعبيد، وهو في الواقع رقم قطعة أرض بيت عبيد أيضاً التي كان في منطقة الوصل والذي رهنه، وسلم مبلغه لحمدان. هو ذاته رقم عيادة الدكتور حمدان. الدكتور حمدان الذي اختصر اسمه على لوحة العيادة بالدكتور "حمدان م. ذ" وحمدان الذي كان يراسله كان اسمه "حمدان بن مجرن بن ذيبان".

يحوم طيف سيف حول تلك الورقة التي تركها منصور والتي دوّن عليها سيف حساب الانستغرام الذي اختار له اسم **T.B.T.1**الذي هو في الوقت ذاته عنوان البريد الالكتروني

.t.b.t@psvi.com

تحت أسفل كل حرف من **T.B.T** دوّن منصور الأرقام التي تكررت كثيراً **20-2-20.** أرقام ترمز هي الأخرى إلى الأحرف **T.B.T** في ترتيب الأحرف بالأبجدية الإنجليزية. أحرف اختيرت لتختصر عبارة:

"اليوم قبل الغد"

Today Before Tomorrow

ينظر طيف سيف إلى الأرقام السرية التي كان يضعها حمدان عند كل زيارة إلى صندوق الأمانات، وإذا بالأرقام ترمز إلى حروف اسم سيف باللغة الإنجليزية SAIF.

حمدان ومن ورائه الدكتور حمدان، وقبلهما معيوف ومطرش يتجسدان، قرينا سوءٍ لسيف وحمدان. وضمير سيف الذي استنهض قواه بعد أن جاءت نقطة التحول في حياته مع موت أسرته، ما هو إلا حمدان، والدكتور حمدان.

حين يباغت ما كُتب علينا منذ الأزل حياتنا، و به يَدمى القلب وتئن أرواحنا، تأتي ربما **نقاط تحول** في حياتنا. يستنهض الضمير قواه، يزيل رماداً قد ذُر في عينيه. يتجسد ربما فيمن هم حولنا، نحاورهم ويحاورونا، تخرّ قوانا فيستنهضوننا، تقوى عزائمنا وكتفهم بكتفنا. نسير وإذا بقوى الشر وقرين السوء من اليمين واليسار يتربص بنا، يُغوينا، يُعرقلنا وإلى التقاعس يدفعُنا، وبدل عمل خير لا بد من إنجازه في يومه، إلى براح الغد ومستقبله يسوقنا.

يحوم طيف سيف حول الملف الأزرق ينظر إلى تلك العبارة التي كُتبت على الملف **"اليوم قبل الغد"** وإذا بها تتحول إلى:

"ذهب اليوم ولن يأتي الغد"

مما تبقى من فتحة الباب الموارب، ينظر طيف سيف إلى منصور وهو يمضي بتلك الأوراق التي جمعها فهل..؟

في حياتنا نمُرُ بمراحلٍ ثلاث:

"ماض لن يعود، وحاضر نعايشه، ومستقبل ننتظره، ولا نضمنه"[1]

النهاية

الهوامش

[1←]

من المجموعة القصصية "7 دقائق على انفراد"

1. Cover
2. cover1.html
3. اليـــــوم
4. (1)
5. (2)
6. (3)
7. (4)
8. (5)
9. (6)
10. (7)
11. (8)
12. (9)
13. (10)
14. (11)
15. (12)
16. (13)
17. (14)
18. (15)
19. (16)
20. (17)
21. (18)
22. الهوامش
23. الغلاف اليـــــوم (1) (2) (3) (4) (5) (6) (7) (8) (9) (10) (11) (12) (13) (14) (15) (16) (17) (18) الهوامش